أهلًا بالجيران

مجموعة قصصية

كارين كيوان

أهلًا بالجيران
المؤلفة : كارين كيوان

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولى : سبتمبر 2018
رقم الإيداع : 2018/17115
الترقيم الدولي : 978-977-769-231-1

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم -
من صبري أبوعلم - عمارة
أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247

الإهداء:

إلى من لا زالت منذ أول صرخة تصارع متاعب دنيا لا ترحم بصبر أدهش الصبر.
إلى تلك الشمعة التي تذوب بصمت لتفتح بنورها دروب النجاح والسعادة أمام من تحب.
إلى صفاء كيوان الرائعة أهدي كتابي هذا.

كارين

أهلًا بالجيران

هوسنا بالمسلسلات القديم قدم شاشات الأبيض والأسود يتفاقم عامًا بعد عام. نمت أعراضه واتضحت على أيام العواصف التي كانت تهب مئة مرة، وتفعل العجائب بالأبطال لنكتشف في الحلقة الأخيرة إنهم لا زالوا سالمين لم تمسهم ولو قطرة مطر.

وكبر الهوس وازداد مع ابتكار دبلجة المسلسلات فعشنا معاناة كساندرا وماريا مارسيدس، ودعونا الله أن تشفى «إيزميرلدا»، وبكينا من أجل حب راكيل وأنطونيو. وأخيرًا أسدل الستار على المكسيكي بعد أن سمى نصف أبناء البلد أولادهم خوسي وجوليانا وماريا.

ذهب المكسيكي، وحل مكانه التركي، وكل مسلسل يفوق المئة حلقة على أقل تقدير، وقد يمتد لسنوات وسنوات، فيكبر أطفالنا مع أبناء نور ومهند عامًا بعام ونعيش تفاصيل العشق الممنوع، والمسموح وما بينهما بدقيق دقيقها.

ولأننا أمة لا ترضى أن تكون فقط مستهلكة لإنتاجات الآخرين كان لنا باع في صناعة المسلسلات، فأبدعنا كالعادة بحارات،وملاحم،

وقصص غرام وانتقام ضاهت التركي طولًا والمكسيكي تعقيدًا.

على أيّ حال اختيار المسلسل الذي سيعجب الجمهور أصبح مسألة بسيطة لا تحتاج كثيرًا من التفكير. فأنت بحاجة لحبيبين تعاندهما الظروف، ويتآمر ضدهما المتآمرون، فهما في لقاء وفراق على مدار القصة. إضافة إلى كمية كبيرة من العنف والإجرام لإرضاء ساديتنا البريئة. ولا بأس أن تضيف بعض من المغامرات غير المعقولة وشيء من الرومانسية والمشاهد المؤثرة. كل ذلك لا بد أن يمتد على مواسم،وأجزاء، وبالنسبة للممثلين أو المدبلجين والسيناريو، وتلك الأمور السخيفة فهي ثانوية إن حسنت فنعمَ هي وإلا فلا مشكلة بعض الإعلانات الترويجية، والوجوه الجميلة، والموضوع محلول.

من المسلسلات ذائعة الصيت هذه الأيام مسلسل تعرضه إحدى القنوات المحلية في وقت ما بعد نشرة الأخبار المسائية. في هذا المسلسل لم تبقَ مصيبة قد تخطر على بالك، وقد لا تخطر إلا وسقطت على رأسي العاشقين المتيمين، فهما في معاناة لا تنتهي حتى أدى حالهما إلى زيادة وصفات الأدوية المضادة للاكتئاب على مستوى الوطن.

والآن اقترب مسلسلنا المحبوب من نهايته، ودنت السعادة التي ينتظرها الجميع، لذلك فتفويت حلقة في هذه الأيام ضرب من ضروب الجنون لا يقدم عليه إلا قلائل.

حلت ساعة الصفر، وتحلقنا حول شاشة التلفاز لمتابعة الحلقة المهمة ولكن طرق الباب.

اتفقنا ضمنيًا على أن نعتبره، لم يطرق ولكن الطرق استمر وأصبح إلحاحه أكبر من تجاهلنا، فقام أحدنا متثاقلًا وفتحه لنشاهد جارنا وزوجته الذين يسكنان في الشقة المقابلة لنا مع أطفالهما، وقد تدفقوا إلى الداخل بعد سلام مستعجل.

صحيح أن هذه العائلة لم تدخل بيتنا مسبقًا، وإن لقاءاتنا بهم لا تتعدى مصادفات على السلالم، وإن كلماتنا ليست أكثر من مساء الخير جيران وشرفونا بزيارة يومًا ما، ولكن الوقت ليس حاليًا لشغل تفكيرنا بمثل هذه المسائل،وبمحاولة معرفة ما وراء هذه الزيارة المفاجئة.

تابعنا المسلسل سوية وقمنا بواجبات الضيافة في أوقات الإعلانات، وتبادلنا أحاديث متقطعة من قبيل السؤال عن الأحوال والأعمال.

انتهت الحلقة، وبعد تعليقات سريعة تناولت الأحداث ودعنا الجيران شاكرين لنا حلاوة السهرة.

في صباح اليوم التالي وبينما كنت أخرج من المبنى لمحت الجار زائر الأمس يحمل بين يديه تلفازًا ويضعه على عجل في سيارته. حياني باقتضاب وهو مشغول بمكالمته الهاتفية المحتدمة مع أحدهم، وهو يصر عليه بأن يتم إصلاح العطل الطارئ قبل المساء للضرورة.

ضرورة الاختيار

أخيرًا غفا الصغير. غفا بعد أن أرهقها بالأسئلة. غفا بعد أن أكدت له مئات المرات بأن والده بخير وسيعود قريبًا، وبأن أصدقاءه سيأتون للعب معه في الغد.

غفا الصغير بعد أن قضت ساعة كاملة تتحامل على صداع متوحش يحمل ألف سوط، ويجلد به رأسها دون أي رحمة، وتحاصر صرخات الألم التي تكاد تفلت منها كل دقيقة أثناء سردها لحكاية الأمير والأميرة أو تأليفها لكذبة لتبرير غياب الأب المفاجئ عن طفله الذي لم يبلغ عتبة عامه الرابع بعد.

لم يمهلها الصداع المجنون ولو قدر تنهيدة ارتياح أو بسمة انتصار لأنها تمكنت مجددًا من إقناع طفلها أن كل شيء بخير على رغم أن الخير، هو أبعد ما يكون عن بيتهم الذي كان قدره أن يبنى في بلاد لا تحتاج لشبهة لتقرر فصل أب عن أبنائه، ولا تقبل منه دفاعًا أو من عائلته أي توسل.

منذ شهر كامل لم تعلم عن سمير زوجها أي شيء. آخر ما عرفته عنه من أحد زملائه في المحل التجاري الذي يعمل فيه أنه رآه يقيد ويرمى في

سيارة عسكرية لتنطلق به إلى حيث لا يعلم أحد، والويل لمن يفكر أن يسأل، فالبلاد في حالة طوارئ، والنظام في حرب مع إرهابيين يريدون إسقاطه.

تناقل الجميع في حيهم الصغير خبر اعتقال سمير كخبر عادي يتكرر عشرات المرات أسبوعيًا. وكان عادي أيضًا ما حل بأسرة سمير الصغيرة المكونة من زوجته وابنه فأصدقاء طفله ما عاد يسمح لهم بالمجيئ للعب معه، وما عاد يجدهم في بيوتهم إن أراد الذهاب إليهم. وجارات أمه توقفن عن المجيء لقضاء الـ«صبحيات» معها كما كن في السابق واختصرن ساعات الزيارات الطويلة بكلمة صباح الخير إذا حصل والتقت بهن في الطريق.

هي عذرت الجارات والجيران فهي تعلم تمام العلم أن في بلادها مجرد ابتسامة في وجه عائلة مفقود أو معتقل تعتبر جريمة قد تودي بصاحبها إلى نفس المصير أو أشد.

اعتقل سمير دون أن يترك للعائلة إلا قليلًا من المال. فالمال كان ضئيلًا يأتي من راتب يمتصه غلاء فرضته الحرب إلى الرمق الأخير قبل أن يشعر به في جيبه.

ولأن المصائب كما يقولون تأتي متتالية فقد خلف غياب الزوج صداعًا في رأس زوجته يتعاظم يومًا بعد يوم حتى غدت حبات ال مسكن لا تهدئه سوى ساعات قليلة ليعود أشد ضراوة وعنفًا.

هجوم الألم هذه المرة مركز الضربات. بحثت عن علبة المسكن

فوجدتها فارغة.

تعد بعينين زائغتين ما تبقى لديها من مال فتصطدم بواقع مر يزيد حزنها حزنًا. المال المتبقي على وشك النفاذ.

هي الآن أمام خيار صعب فإما أن تشتري حبات من المسكن لتسكت ألمها أو أن تأتي ببعض الطعام كمؤونة لسد جوع الصغير لأيام.

إنها تحب صغيرها لدرجة الهيام ولكن الألم شديد جدًا ولا يزال في ازدياد.

أفلتت منها صرخة سرعان ما خنقتها قبل أن تعلو وتوقظ طفلها النائم، واستبدلتها بدموع حارقة تساقطت على خدين علتهما صفرة تشبه صفرة الموت.

كان الألم يستجمع كل قوته ويعتصر رأسها بين قبضتيه الفولاذيتين حتى لتشعر وكأن أجزاء من جمجمتها تتفتت وتخرج من عينيها مع دموعها الغزيرة الحارة.

لا تدري لماذا مع كل نوبة ألم تمثل صورة سمير أمامها، وهو يتعرض للتعذيب فقد يكون سمير أيضًا يعاني آلاما قد تفوق آلامها بمرات ومرات ولكن وجه طفله الوحيد ليس هناك ليعينه على تحمل قسوة الجلاد وظلمة الزنزانة.

حاولت بكل جهدها أن تطرد صورة سمير من أمام عينيها لكنها لم تستطع فكل الأشياء متفقة على تدميرها.

الصيدلية قريبة. ستأتي فورًا بدواء يوقف هذا العذاب غير ممكن

التحمل.

تحمل المال وتسير خطوتين متعثرتين من ثم يوقفها التساؤل الأهم: من أين ستدبر النقود لتشتري الطعام إن جلبت المسكن؟

تسقط الأوراق النقدية من اليد المرتعشة وترفض القدمان متابعة السير ويتهاوى الجسد على الفراش بجانب الطفل النائم.

بهتت ألوان الأشياء في الحجرة. تراقص كل شيء غيوم سوداء تكاثفت وغلفت الأفق بظلام سميك. وغابت في إغماءة لا تدري أقصرت أم طالت كانت خلالها أشباح. وذكريات تتزاحم كلها في رأسها محدثة ضجيجًا وفوضى لا تطاق.

ولكن... في لحظة واحدة كل شيء هدأ فجأة وقد امتدت يد بيضاء رقيقة تربت على كتفها، وصوت طفولي لا زال النعاس متمكن منه يناديها «ماما لماذا لا تستيقظين أنا جائع جدًا».

الإيجار الأخير

إنها زيارة متوقعة. مجموعة من المعارف والأقارب آتون لتهنئة أخي بانتقاله للشقة الجديدة. الأحاديث معروفة سلفًا والجولة في المنزل أعد لها مسبقًا. وجميع الأسئلة الفضولية التي ستطرح كإيجار الشقة الجديدة ونوع الاتفاق مع صاحبها وبنوده يستعد أخي للإجابة عنها دون أي تحفظ.

ولكن ما لم يتصوره أخي السؤال الذي طرحه عليه أحد الزائرين: «هل قمت يا أيمن بتسديد إيجار الشهر الأخير لمالك الشقة التي كنت تسكنها».

هوى السؤال لكمة قاسية على أمانة أخي. تحمر عيناها، يقطر أنفها دمًا وتطالبه بأخذ ثأرها. فيقف محتجًا رافعًا صوته بأن مثله لا يسأل مثل هذا السؤال فهو معروف بتأديته ما يجب عليه حتى القرش الأخير.

تغيرت الوجوه من حوله. كل واحد حاول بمهارات متفاوتة أن يتقمص ملامح واعظ ناصح أمين وتحدثوا بأصوات متداخلة متشابهة النبرات بما مفاده أن ما فعله خطأ لا يقع فيه إلا قليل تبصر. فهو قد ترك المنزل ولا ضرورة لتأدية الشهر الأخير. ألا يكفي ما تقاضاه منه المالك

خلال سنوات!؟ أليس من الأفضل أن يوفر المال لحاجات عائلته وإيجار المنزل الجديد؟

يحاول أن يعترض. يشرح بأن عقد الإيجار يلزمه بتسديد مبلغ آخر شهر قضاه في الشقة. تدب فيهم حماسة شديدة وينطلقون بسرد بطولاتهم في ميادين الحصول على المال بوسائلهم الشرعية التي لا غبار عليها.

فهذا روى له كيف إنه وكل أقربائه ما انتقل منهم أحد من منزل إلى منزل إلا وامتنع عن تسديد إيجار الأشهر الثلاثة السابقة على الانتقال.

وذاك أطنب في سرد تفاصيل زيارته لأحد محال الخضار وكيف أنه خرج بعد أن اشترى ما يقارب نصف المحل ظانًا بأن صديقه قد سدد الحساب ثم اكتشف لاحقًا بأن ذلك لم يحدث فدعا صديقه على أطيب صحن تبولة بالمجان.

وثالث تكلم وأطال عن خطبته المؤثرةالموجهة إلى أحد الأطباء المشهورين عن أبنائه الذين يعانون الجوع والفاقة حتى استحصل منه بحركات تمثيلية، وعبارات درامية، ودمعتين على تخفيض في كلفة العملية الجراحية. حينها علق رابع قد التزم الصمت طوال ما مضى من الزيارة: «أحسنت والله إنك لبارع بتمكنك من سحب المال من ذاك الثري الذي لا يشبع».

استمع أخي بصمت.واستغل لحظة استراحة بين قصتين لتغيير الموضوع متلافي سماع المزيد داعيًا الله أن لا تطول الزيارة أكثر.

كنت في غرفتي أقرأ كتابًا عندما دخل أيمن المنزل. وقف في الممر

يحدث أمي بصوت مرتفع عن تفاصيل الزيارة وصولات وجولات الضيوف.

اختلطت أحرف الكلمات على أوراق كتابي، وحلت رويدًا رويدًا محل الصفحات مشاهد ماضية من حياتنا: بداية من صاحب دكان مجاور لمنزلنا ظل حساب أبي يتضخم في دفاتره أضعاف قيمته الحقيقية لزمن وأبي يتردد في أن يكلمه بالأمر. خشية أن يظن ذلك تشكيكًا في صدقه وجيرته الحسنة. انتقالًا إلى صانع خزانات المياه الذي صنع لنا شبه خزان بثمن بئر. وغيرها كثير يمر أمام عيني شريط متسارع.

أغمضت عيني فترددت في أذني أصداء أصوات أقارب وغرباء يدعوننا لاستغلال ظروف مرت بها الأسرة لتحصيل بعض التخفيضات في نفقات علاجات طبية، وبعض من نقود لم نجدها يومًا تستحق أن نحمل من أجلها ناي شكوى شجي كلما ارتفع عزفه، حط من قدر عزة نفس تربينا على سرد مناقبها وحفظها من كل شائبة.

لوحت بيدي أطرد حقيقة أعرفها منذ زمن أن المبادئ التي تربينا عليها في أسرتي أصبحت في أعين كثيرين بالية لا تصلح إلا لمسلسلات أبو ملحم، وبأن من هم مثل عائلتي دائمًا مثار استغلال وسخرية فهم ينتمون إلى فئة من اثنين: إما أثرياء يجلسون فوق مفاتيح كنوز قارون، أو سذج لا يجيدون من فنون الحياة الحديثة شيء. ولأي الفئتين انتموا كانت سرقتهم حلال، ولعل السارق يستحق على ما يفعله بهم ثواب من الله.!.

وقفت غاضبة. ناديت ضميري الذي لا يريح ولا يستريح. قلت له

«اسمع وتعلم كيف يفكر الناس. إنهم ينامون ليالٍ هانئة على أسرتهم بعد أن خدروا أمثالك وأذلواجبروتهم. إنهم مرتاحون فيما أنت تعلن النفير العام كلما فكرت للحظة بأن أؤجل دين أحدهم للضرورة. أقول لك بأن المبلغ تافه وتأجيله مؤقتًا ليس ذو ضرر. فترفع إصبع التهديد في وجهي منطلقًا في محاضرة عن حقوق الآخرين واحترامها، وعن أن الدين يبقى مستحقًا في ذمة المدين بغض النظر عن يسار الدائن. وتصرخ متوعدًا آكلي أموال الناس بالطرد من رحمة الله، وبتآكل داخلي لا يبقى ولا يذر... أنا من الآن سأتغير سأقضي على سطوتك وسأعيش كما تعيش الأغلبية بعد أن أرمي تلك المبادئ بعيدًا».

ابتسم وهو العابس دائمًا وقال بهدوء: «حسنًا افعلي ما تشائين ولكن قبل ذلك عليك أن تخوضي معي حربًا سأقود معاركها من خلية إلى خلية وكل الشرايين ستكون لها ميادين.

أخذت أستعيد هدوئي شيئًا فشيئًا. عدت أجلس متربعة على الأريكة أحمل الكتاب كما كنت قبل وصول أخي. تركني ضميري للقيام ببعض شؤونه الخاصة. وقال لي وهو يبتعد قليلًا دون أن ينظر إليّ: «على فكرة لا تنسي أن تذهبي في الغد إلى صاحب فرن المناقيش لتعيدي له الألف ليرة المتبقي له لديكِ نتيجة الخطأ في الحساب الذي حصل في الصباح».

انتظار ولي عهد، لن يأتي

حضّر جميع الأسئلة التي سيوجهها للطبيب في الغد. عليه أن يعرف كل شيء بدقة: نوع العلاج، كيفيته،مدته، ونسبة نجاحه.

بناءً على إجابات الطبيب سيتخذ قراره الحاسم وسيواجهها به مهما كان وعليها أن تتقبله لأن مسألة الإنجاب بالنسبة له خط أحمر.

حبه لزوجته عشق جارف سيطر على كل كيانه منذ النظرة الأولى. كلما اشتم رائحة جسدها الشهية داهمه دوار عشقي. لا بد أن يرتشف شفتيها قبل قهوة الصباح وأن يكون جسدها النائم آخر ما يغمض عليه جفنيه. في عمق عينيها هو شخص فاشل في السباحة تائه تمزقت أشرعة سفينته وغرقت. يخشى النظر لعينيها كثيرًا خاصة في هذه الأيام عندما بدأ بالتفكير الجدي بقراره القادم.

هو مستعد للتضحية بكل شيء من أجلها إلا حلم الإنجاب.

كل العائلة تنتظر ولي العهد.

أمه تذكره دوما بأنه الوحيد لـ5 أخوات، وبالتالي فهو حامل لواء العائلة وعليه أن يسلم الراية لابنه من بعده وإلا طوى الزمان ذكر أسرتهم

وانقرضت مع المنقرضين.

إلحاح أمه وصله بالعدوى فتمكن منه. غدا كلما حمل بين يديه أحد أطفال أصدقائه أو أخواته تخيل طفله بين يديه وكادت تفلت منه دمعة وتنهيدة صبر نافذ.

بات كُلما سأله أحدهم عمدًا أو عرضًا أكان هناك من طفل قادم شعر بالسؤال طعنة شماتة تصيبه في الصميم.

يرتعش خوفًا إن ذهب به التشاؤم لحظة للتفكير بأنه سيصبح عجوزًا، ولن يسمع كلمة جدي ينطقها أحفاده المتراكضين حوله بصخبهم المحبب.

يتصبب العرق من كل جسده إن تصور العمر يمر بلا رفيق صغير يمنح للأيام حلاوة لا تضاهيها حلاوة.

يريد أن يحمله بين ذراعيه، إن يمسك بيده في الخطوة الأولى، أن يلاعبه تاركًا له حرية القفز فوق ظهره، يسير به في الشوارع، يساعده في دراسته والأهم أن يسكت كل المشككين بأن زواجه سيثمر وبأن اسم العائلة سيبقى مصانًا.

سنتان قضاهما صابرًا ينتظر ولم يأتِ الطفل الموعود. طفح الكيل فزارت زوجته الطبيب طلب منها تحاليل فتبين ما لا يتمناه.

هي تعاني مشاكل تمنعها من الإنجاب في الوقت الراهن، ولكن من المفترض أن تتحسن مع العلاج.

طلب الطبيب منها مزيدًا من التحاليل وبعض الوقت لتقييم نهائي

للوضع وموعدهما في الغد هو لشرح مراحل العلاج على ضوء ما يتبين.

الطبيب أشار عليه أن يقوم هو أيضًا ببعض التحاليل الضرورية فأجراها رغم وضوح أن العلة في زوجته، علة تتوق كل جوارحه للاطمئنان إنها مؤقتة فسعادته لن تكتمل إن لم تكن هي أم ابنه الآتي.

يجب عليه مرغمًا أن يفكر بالاحتمالات الأسوأ لاتخاذ القرار المناسب.

لا، هو لن يتمكن من أن يتخلى عن حلمه وحلم العائلة من أجلها مهما كان حبه لها كبيرًا.

حسم المسألة في هذه الليلة مع فنجان القهوة العاشر. إن كان وقت العلاج طويلًا أو نسب نجاحه ضئيلة سيبحث عن أخرى لتنجب له ابنه.

ما عليه الآن إلا أن يحضر الجمل الأقل جرحًا لها. يؤخر كلمة ويقدم أخرى، يستبدل حرفًا بحرف وعبارة بألطف منها. يغير الصياغة ولا يستقر على الصيغة الأفضل فيترك المسألة لحينها، ولتأت الكلمات بحسب الظروف.

يدعو الله أن لا يضطر لأخذ القرار الصعب. يبتهل إليه متضرعًا أن لا يلجئه للتضحية بحب حياته ليحيا طفله القادم.

يرن منبه الهاتف في السادسة صباحًا.

استغرقه التفكير، ولم ينم لحظة.

أبعد أعقاب السجائر المنتشرة على الطاولة، وذهب إلى المنزل ليرافقها إلى العيادة.

لقد تركها الليلة الماضية وحيدة بحجة أن عليه إجراء بعض الأعمال

المستعجلة في المكتب. لعلها هي الأخرى لم تنم مثله. لعلها في حيرة أشد منه وفي وضع أكثر دقة.

يستقبلهما الطبيب واجمًا.

يتحدث على مهل:

«لا بد لي من الصراحة التامة معكما رغم قسوتها».

علي قبل أن أتحدث في علاج مشاكل السيدة أن أخبرك أستاذ أني اطلعت على فحوصاتك. وعرضتها على لجان طبية فكان الرأي واحدًا: «أنتِ عقيم. عقيم يستحيل عليك الإنجاب».

عقدة ذنب لم تحل

كرر الأستاذ الدعاء على مسامعنا مرات ومرات وطلب منا حفظه وقد أخبرنا بأنه يكفل لمن يدعو به دخول الجنة.

لم أترك كلمة من كلمات الدعاء تفلت قبل أن يحفظها قلبي وأذناي معا.

كنت في عامي السادس يومها غير أني لا زلت أذكر سعادتي بأن حجز مقعدي في الجنة بهذه السرعة والبساطة.

في المساء كررت الدعاء لمرات وأنا على ثقة بأن كل شيء سيتغير، وبأني سأصبح في الجنة قريبًا.

المشكلة التي قضت مضجعي هي كيف سأعلم أني أصبحت في الجنة، ولم أعد على الأرض فهذه المسألة لم يذكرها لنا الأستاذ ولن أترك مجالًا لخيالي بالخوض فيها فهي من اختصاص الكبار.

انتظرت الصباح بصبر فارغ.

جاء الصباح أخيرًا وقد طال الليلة على غير عادة حتى شككت بأن الفجر سيطل مرة أخرى.

على مائدة الفطور سألت أبي: «أبي كيف يمكنني أن أعلم أني في الجنة».

لم يهتم لمعرفة سبب سؤالي بل أجابني ببساطة: «عليكِ أن تطلبي شيئًا من الله فإن حصل فأنتِ في الجنة ففي الجنة كل ما يتمناه المرء يدركه بمجرد طلبه».

استعجلت إنهاء فطوري، ولم أذهب للعب مع أننا في يوم عطلة بل دخلت غرفتي وأغلقت الباب خلفي.

لا بد أن أقوم بالمحاولة الآن

تفتحت قريحتي الطفولية عن طلب ممتاز لبداية التجربة فدعوت الله أن يأتيني كيس كبير من حبات الصنوبر التي أحب أكلها كثيرًا.

انتظرت قليلًا ولكن كيس الصنوبر لم يأتِ.

اعترتني خيبة أمل قاسية. لماذا لم أدخل الجنة؟

حسنًا بسيطة سأقرأ الدعاء مجددًا في هذه الليلة وسأكون أكثر صدقًا.

تكررت الليالي ولم يأتِ كيس الصنوبر الذي سيكون دليلي لأني أصبحت في الجنة حيث كل شيء متوفر، ولا واجبات مدرسية ولا أوامر ونواه غير مفهومة السبب والمغزى.

لا تفسير لكل ما يحصل إلا أنني غير صادقة مع الله.

كيف لي أن أخبر أستاذي بأن الدعاء لم يأتِ بالنتيجة المطلوبة. وبالتالي أن أخبره بأن الله ليس راض عني؟ ماذا سأقول له إن سألني

عن ذنبي؟

لا بد أن ذنبي كبير وكبير جدًا.

ليالٍ كثيرة هجرني فيها النوم فأنفقت ساعاتها في التفكير بكنه ذنبي العظيم دون أن أفلح، ومتع وألعاب أحبها أخرجتها بعنف من روتين يومياتي على مدار عام كامل تكفيرا عن إثمي الخطير عل الحاجز الذي يسد علي الطريق إلى الجنة ينهار ويتلاشى.

بين غارتين

انفجار يتلوه انفجار ومنزل يسقط إثر منزل.

ثلاث ساعات انقضت والغارات لم تتوقف للحظة. كل شيء يشتعل.

الطائرات تقصف المدينة منذ أيام محيلة طرقاتها وبيوتها إلى قبور.

جثث كثيرة اختلطت بالركام ما تم انتشاله منها جزء بسيط مما لم يتم انتشاله.

الموت يلاحق كل السكان. جوع أمراض ونقص لوازم طبية وقصف متواصل أسباب كثيرة لموت واحد.

أعلنت المدينة ثورتها على نظام البلاد القمعي وتوالت على حكمها ألوية وفصائل ومجالس مدنية وعسكرية محلية وغير محلية كل منها يحمل أفكارًا وأيديولوجيات مختلفة لم يستطع غالبية السكان تقييمها فهم مشغولونبالبحث عن سبل البقاء في مدينة طوقت لحظة ارتدائها ثوب العصيان بحصار محكم أرهقها إفقارًا وتجويعًا. حصار تتراخى قبضته بين فترة وفترة بعصا ساحر ليدخل سماسرة ووكلاء أثرياء

معروفين لشراء أراض بأثمان بخسة أو بمجرد، وعود بتهريب بائعيها من الجحيم الذي يعيشون فيه.

ندر وجود المواد الغذائية وإستنفدت المستلزمات الطبية. المستشفيات أصبحت مرضى ومصابين،وأطباء دون أدوية، والمحلات التجارية خلت إلا من يائسين يرتادونها علهم يجدون فيها القليل مما يسد رمق أبنائهم.

تصل أحيانًا بعض الشاحنات المحملة بمواد غذائية ينهب معظمها من قبل مسلحين هم أيضًا جياع ولكنهم الأقوى بسطوة السلاح، وبالتالي فلهم الحصة الأكبر من المؤن الشحيحة.

طال انتظارالاستسلام حتى نفد صبر الدولة فعقدت العزم مؤخرًا على أن تعيد المدينة إلى طاعتها، وليسقط خلال العملية من يسقط وليبق من يبقى فهذه قضايا ثانوية تهون أمام القضية الأعظم.

القصف منذ ذلك القرار مركز. طائرات تتقاسم الأجواء لا يعرف السكان لمن تتبع ومع من تقف في حرب اختلطت أوراقها، وتضاربت وتقاطعت المصالح فيها، بشكل يستعصي فهمه على محللين سياسيين واستراتيجيين مخضرمين فما بالك بأناس أنهكهم الجوع والمرض. ومخاوف ترقب الغارات، والمعارك التي ستحرقهم في أتونها بلا رحمة.

طائرات تجوب الفضاء. تقصف أحيانًا وتستعرض أحيانًا أخرى. تدنو حتى تكاد تلمس الرؤوس. يظن الجميع أن الموت أصبح وشيك من ثم تبتعد الطائرة وترتفع فيتنفسون الصعداء.

الشوارع مقفرة. الجميع يحاولون الاختباء في ملاجئ حفروها بأنفسهم هي غالبًا أكثر خطورة من البقاء بعيدًا عنها.

اليوم القصف أكثر عنفًا من كل الأيام الماضية. هو يرى البيوت تتساقط من حول منزله واحدًا واحدًا. إنه متيقن أن جيرانًا له قضوا أو سيقضون قريبًا. هو نفسه لا يدري متى سيسقط على منزله برميل متفجر أو صاروخ يحيله إلى ذكرى لمنزل.

زوجته بجانبه تتشبث به عند كل انفجار. يضمها إليه يبكيان معا. هو لا يبكي من الخوف أو حذر الموت، فالموت أصبح محيطًا به حتى ألفه لكنه يبكي على عمر ضاع وهو في عز الشباب. يبكي لأنه غير قادر على حماية زوجته الحامل من كل ما يجري وغير قادر على توفير أي شيء لابنه الذي قد يولد وقد لا يولد.

الطعام في بيته نفد منذ أيام. الجوع يلتهم أحشاءه، ويمحو بأصابعه الخشنة تفاصيل ملامح وجه زوجته ويذيب جسدها.

هو يفكر بالطفل أيضًا. حتى الآن لا يفهم كيف لا زال في مكانه ولماذا هو متشبث بالحياة. بالطبع إن ولد ذاك الطفل سيولد بتوتر عصبي مزمن. سيولد بفوبيا الأصوات العالية، أو قد يكون معجبًا بما يسمع معتقدًا أنها سيمفونية ينام على أنغامها ليأتي عاشقًا للحروب،والدم، ورائحة البارود، والشواء.

توقفت الغارات. لا أحد يمكنه أن يتوقع اللحظة التي ستعود للاشتعال فيها لكن هذه الفترة من الهدوء لا بد من استغلالها، فحياة

السكان أصبحت مجرد أوقات مسروقة بين غارتين ينام فيها من ينام ويخرج فيها من يخرج ليبحث عن كسرة خبز أو ليتفقد عزيزًا، أو محلًا، أو شارعًا، أو جدارًا نقش عليه اسمه يومًا أو قد يكون نقش عليه كلمة حرية في لحظة عنفوان.

هو يستغل استراحة ما بين الغارتين غالبًا ليطمئن زوجته ببعض الكلمات التي مل تكرارها، وليس لسماعها بالنسبة لها أي وقع ومن ثم يخرج في الشوارع يتفقد الأضرار، ويرثي ذكريات طفولة، وشباب سقطت مع هذا المنزل أو ذاك المقهى.

هذه المرة لن يخرج ولن يكرر نفس العبارات الصدئة .الآن هو فقط بحاجة للتأكد أنه ما زال حيا. يود أن يستمتع بدقائق قد تكون الأخيرة.

نظر إلى زوجته بحنان. ضمها إلى صدره. همس في أذنها بعذوبة استغربها في صوت عبث بدوزنة أوتاره العطش والجوع بكلمة أحبك.

هو لا يقول هذه الكلمة كثيرًا حتى من أيام ما قبل الحصار فهو بطبيعته، لا يفصح عن مشاعره مدفوعًا بطباع تشربها من تربيته الشرقية.

غير إنه الآن يريد أن يعبر بألف أحبك عن كل العشق الذي يكنه لتلك الفاتنة رغم الشحوب والنحول، الصلبة في مدينة متداعية، المرأة الذكية الفصيحة التي تناقش في أهم القضايا السياسية، صاحبة كيان جبار آسر انحنى عقله وقلبه له احترامًا منذ يوم التعارف الأول.

أخذها بين ذراعيه. دبت الحياة في أوصالها من جديد. ضمته بشدة. اتحدت الدموع وتلاحم الجسدان، تدفقت المشاعر دون أي رقابة. تحررت من حضور الموت. الطاغي أعلنت عن نفسها بقبلة ملتهبة طويلة من شفاه ما عاد فيها أثر لتشقق.

تعاهدا على أن يعيشا الحياة حتى النهاية وعلى أن حبهما سيهزأ بالطائرات العملاقة التي توزع الموت بعشوائية وأغمضا عينيهما. مستسلمين لخدر عشقي ممتع في انتظار الغارات القادمة.

عذرًا أيها المواطن الاستثنائي فما عاد من شيء مطابق

بين حين وآخر تطل علينا شاشات التلفزة بتقارير إخبارية، وحلقات دسمة من برامج الفضائح حول فساد جديد يطال طعامنا وشرابنا. فمن المواد غير المسموح بها في الحليب ومشتقاته إلى الأغذية مزورة الصلاحية مرورًا بالطحين الذي نتشاركه مع الفئران والهامبرغر بنكهة القطط، والمزروعات المروية من مياه الصرف الصحي.

مثل تلك الحلقات كانت في البداية تحدث خضات في المجتمع اللبناني، فتحقق القناة نسب مشاهدة عالية لبرامجها تلك ويستمر الحديث في الموضوع أسابيع وشهور ويضرب كثيرون عن استخدام المنتجات محور الفضيحة.

ومع الوقت ولأننا شعب يعتاد كل شيء، ويتأقلم مع كل ضروب الذل أصبحت مثل تلك المسائل تمر مرورًا عابرًا فنستقبلها بشيء من الغثيان، ومنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي لصور مذيلة

بتعليقات ووجوه تعبيرية متقززة، مع بعض التنكيت على العادة اللبنانية.

ولنكن صريحين كل السموم التي في موادنا الغذائية ليست شيئًا أمام قبولنا العيش متجاورين مع كل أنواع النفايات تاركين لها حرية مشاركتنا طرقاتنا، بحرنا، أنهارنا والهواء الذي نتنفسه.

وبما أننا شعب إيجابي بطبيعته علينا أن نعترف بأن هذا المزيج العجيب من التلوث قد قوى مناعتنا حتى أصبحت خارقة. فلو كنا لا نزال من فئة البشر العاديين للقينا حتفنا جميعا منذ زمن .

الآن أصبح شعبنا قادرًا على أن يحيا مطمئنا فلا خوف علينا من حرب كيميائية، أو نووية قادمة فأقنعتنا موجودة فينا. وأي مادة قاتلة أكثر تعقيدًا من غازات المطامر والمحارق العشوائية؟!

ولأن الدولة لا تقبل أن تقف مكتوفة الأيدي، ولا بد أن تشارك في الحـرب على الفساد الغذائي كانت حملة وزارة الصحة على المطاعم،والمتاجر، والمصانع لأخذ عينات من محتوياتها وفحصها ليعرف اللبناني حقيقة ما يشرب ويأكل.

لا أعتقد أن أحدًا منا ينسى تلك الفترة وأيام قوائم يصلح ولا يصلح.

كانت تلك القوائم مثار اهتمامنا لفترة وقد تفاءل المتفائلون، عندما ختمت معامل عملاقة، ومطاعم فخمة بالشمع الأحمر، وشهر بها في الإعلام دون أي مواربة.

حينها قيل أن المفسدين سيتساقطون واحدًا واحدًا وسيفكرون بعد الآن ألف مرة قبل التلاعب بصلاحية منتج، أو استخدام المواد الضارة

بصحة المواطن.

ومرت الأيام وبدأ الشمع الأحمر يختفي ومعه قوائم ما يصلح وما لا يصلح. فتحت المطاعم والمتاجر والمعاملوعاد إليها زوارها ومرتادوها كأن شيئًا لم يكن.

ولأن لكل قاعدة من يشذون عنها ظهرت قلة من اللبنانيين تدعو لأخذ الاحتياطات اللازمة للمحافظة على الصحة، ومقاطعة كل من ضبطتهم الوزارة يومًا وهم يتلاعبون بسلامة المواطن وغذائه. ومن هذه القلة أحد أصدقاء العائلة.

صديقنا هذا يرتب حياته حسب قوائم الوزارة ونتائج مختبراتها. كلما لمّح تقرير في نشرة إخبارية إلى مطعم باحتمال شراء لحم فاسد شطبه من قائمة المطاعم التي يمر بجوارها. وكلما رفع أحد برامج الفضائح الكثيرة صوته بتلوث مادة غذائية أزالها من قائمة احتياجاته اليومية. فتراه يشطب أكثر مما يبقي.

ويكفي أن أخبرك عزيزي القارئ أن صديقنا ذاك أخذ قرضًا من المصرف ليشتري جهاز تنقية هواء لمنزله وفلترا ذو مواصفات مرتفعة لصنابير المياه في البيت.

وكونه يسكن وحيدًا كان لا بد من أن يجد مطعما يوفر عليه مشاق الطهو العصيبة مع محافظةعلى أسس النظافة والسلامة.

وقع اختياره على مطعم صغير بعد أن دخل المطبخ، وأراه صاحب المطعم شهادة وزارة الصحة بأنه مطابق للمواصفات.

ولكن رغم كل الاحتراز يقع البلاء.

إنه الآن يرقد في المستشفى مصابًا بانهيار عصبي بعد أن تلقى في يوم واحد ضربتين موجعتين.

أولا: اكتشف المخدوع بأن المطعم الذي اختاره بعد كثير تمحيص يشتري الدجاج من أكثر شركة تربية دواجن تلطخًا بعار عدم المطابق مع زيادة إنها ضبطت تحاول غش مفتشي الوزارة ومختبراتها.

ثانيا: جميع صحون التبولة والفتوش التي كان يشيد بطعمها يوردها للمطعم صاحب بستان في أحد السهول التي تروى بماء النهر المشهور، بأن مياهه باتت مزيجًا من مياه صرف صحي مضافًا إليها بعض بقايا النفايات المشكّلة.

قررنا أن نقوم بزيارة الصديق في المستشفى. دخلنا عليه وهو منوم بفعل المهدئات وقد اتصل بيده أنبوب التغذية بأكياس المصل.

أفلتت من أخي ضحكة لا تليق بالمشهد العام سرعان ما فسرها لي بهمسة ساخرة: «لقد قرأت في الصباح مقالًا عن أن أكياس المصل في بعض المستشفيات مغشوشة، فماذا سيكون موقف صاحبنا لو وصلته تلك المعلومة وهو في هذه الحالة؟».

لا أنتمي

غفر لها تخليها عنه في أشد أوقات حاجته إليها. عذر قسوتها في إبعاده عن حضنها دون تبرير أو منح وقت للوداع.

منذ أن أصبح بعيدًا عنها ترك خلف ظهره كل ليالي الرعب التي عاشها فيها وكل خساراته وفجائعه معها. لم يأخذ معه إلا الذكريات الجميلة على قلتها فالحبيب المتيم لا يخبئ في ترحاله إلا السعادة التي عاشها مع الحبيب ليتركها زاد عمر يحيا على أمل لقاء قادم.

هو الآن يعود إليها بعد عمر من الاغتراب. يعود إلى حيث قضى الخمسة عشرة سنة الأولى من حياته. يعود إلى حيث تزامن صدى ضحكاته وخطواته الأولى مع أزيز رصاص المعارك الليلية الحامية.

هو عائد ليتفقد مدرسته عله يسأل جدرانها عن أخبار أقران ما عرف عنهم شيئًا منذ زمان طويل. عائد ليسترجع خطواته في الأزقة والشوارع وهو يجري مع أصدقائه في لعب لا ينتهي. ليقف على أطلال منزله الذي قلما كان يقضي فيه الليل لأن الليل كان ليل الملاجئ التي ترتج عند كل قذيفة ولكنها تصمد محافظة على العشرات المكومين على أرضها المثلجة

شتاءً والحارة صيفًا.

في هذه المدينة التي تطأ الآن أقدامه أرض مطارها كانت شقاوته، آماله المسروقة وأحلامه. هنا ولد حبه الأول على مرمى حجر من خطوط التماس، وعلى بعد خطوة من مجال نيران قناص.

يرتمي على أرض المطار يحتضنه يقبله بشوق 30 سنة. يطلب منه أن يسامحه لأنه أطال الغياب بعد أن أخذت كل أوقاته الدراسة والأعمال وتكوين العائلة في أستراليا. هو لن يعاتب لأنه خرج من هذا المطار في أواخر الحرب فارا مع عائلته التي كانت مهددة من إحدى الميليشيات بالتصفية فالعتاب في حضرة اللقاء غير لائق.

يقف يهمس لكل ما حوله أن بيروت كانت تعيش في الشرايين وأن حبها يتجدد مع كل نبضة قلب وإنه أسكنها عقول وقلوب أبنائه وأصدقائه، هناك في البعيد ملكة تغار من تاجها وحسنها الملكات فتحتمل بصبر وشموخ مكائد الطامعين وحسد الحاسدين.

لم يخبر أحدًا في لبنان بأنه عائد. على أي حال معارفه هنا مقصورين على القليل من الأقارب أكثرهم تواصلا معه ابن عم في مثل سنه ظلا يتبادلان رسائل تتباعد ولا تنقطع.

هو يعلم أين يسكن ابن العم، وسيذهب لمفاجئته بعد أن يستقل سيارة أجرة مستمتعًا بمشواره قدر الإمكان.

لمح وهو يخرج من المطار عقب سيجارة ملقى على الأرض يستهزئ بتعليمات منع التدخين في المطار. تمنى أن يعرف صاحب السيجارة ليعطيه

محاضرة في أصول احترام القانون، ولكنه لم ينشغل بالبحث عنه كثيرًا وقد لمح سيارة أجرة توقفت قبل حتى أن يشير لها فأمد السائق بعنوان ابن العم القاطن في أحد ضواحي المدينة و انطلقت السيارة في طرقات، لم يعرف أي من معالمها وكأن هذه المدينة ليست مدينته وكأنه لم يعش هنا يومًا.

لم يطل المسير طويلًا حتى ظهرت أرتال من السيارات منذرة بأن جلسة التأمل طويلة.

أطفأ السائق المحرك وتأفف من الزحمة التي لا تنتهي.

كان موكب السيارات الفوضوي يتحرك كل 5 دقائق أمتارًا معدودة. سأل المغترب السائق عن سبب الزحمة فابتسم، وقال بأن سبب مثل هذه الزحام المتكررة لا يسأل عنه لأنه يتغير بشكل دائم ولأنها أحيانًا تكون ببساطة دون سبب.

قطعت الحديث صافرة سيارة إسعاف تحاول شق طريقها في الزحمة فيتلكأ هذا السائق في فتح طريق لها ويتذمر آخر. في تلك اللحظة اكتشف أن في مدينته التي كانت سيارات الإسعاف جزءًا لا يتجزأ من يوميات الحرب فيها لا يوجد مسرب مخصص لتلك السيارات فيترك لها أن تشق طريقها بالمصاب، أو المريض الذي تحمله بمهارات القائدالفردية، وبالاعتماد على أخلاق السائقين فإن شاءوا فتحوا أمامها الطريق وإلا فعليها الانتظار مثل الباقين، والله يتولى الجريح والمريض برحمته.

شرطي يقف محاولًا تنظيم الزحمة بقليل من النجاح. وفجأة تطير أمام عيني العائد علبة عصير كرتونية من إحدى النوافذ المفتوحة وتستقر على

أرض الشارع. يشعر بامتعاض. تتحرك فيه كل دروس التربية الوطنية التي تعلمها في مدرسته عن النظافة. لعل الشرطي لم يلمح اليد العابثة بنظافة المدينة. يشير إليه لينبهه. يسأله الشرطي عن حاجته. يخبره بما رأى مشيرًا إلى السيارة المعتدية، وإلى العلبة الكرتونية الملقاة في الشارع كدليل على الجريمة.

يبتسم الشرطي ابتسامة لم يفهم مغزاها. يتبادل مع سائق سيارة الأجرة التي يركبها المغترب غمزات سريعة. يسأل العائد بتهكم: «الأخ مغترب» يجيبه بصحة ما يقول. تبقى الابتسامة نفسها على شفتيه، ويخبره بأن الإجراءات الضرورية ستتخذ بحق رامي العلبة، ويطلب منه بكل أدب أن يتركه الآن لعمله الهام بتنظيم عقد السير الملتفة حول رقبته في هذا اليوم المشؤوم.

تحلحلت الزحمة أخيرًا وانطلقت السيارة مجددًا بسرعة إلى مقصد المغترب، وقد ابتعدت رويدًا رويدًا عن قلب المدينة إلى الضواحي.

هناك كان لا بد للسائق أن يحضره نفسيًا لرؤية بعض المشاهد التي لن يستطيع تقبلها طالبًا منه ضبط أعصابه. لم يحتج للاستيضاح فقد أطلت أمام عينيه أكياس وأكياس تنتشر كيف ما اتفق على جانبي الطريق ملأي بالنفايات تعلن عن نفسها برائحة خانقة، وتتناثر الكثير من محتوياتها دون أدنى خجل في مواجهة جميع الأعين.

سأل بين السعال والشهيق عن السبب فكانت في مواجهته ابتسامة من سائق السيارة تشبه ابتسامة الشرطي أثناء حديثه عن رامي الكرتونة قائلًا

أن الموضوع أزمة عابرة ستحل بعد عشرة إلى عشرين سنة على الأكثر.

لم يرد متابعة الحديث، وليترك كل أسئلته جانبًا عند لقاء ابن عمه الذي يأمل أن يجده في المنزل.

وصل المبنى. مبنى غطيت جدرانه بصور لأشخاص لم يعرف أحد منهم.

توجه إلى المصعد ليقصد الطابق السادس حيث يسكن ابن العم، فهو مرهق لن يصعد السلالم برغم أنه يستخدمها كثيرًا في أستراليا.

قبل أن يصل المصعد ناداه أحدهم: «يا أستاذ الكهرباء مقطوعة والمصعد لا يعمل في أوقات الاشتراك». فكر قليلًا لعل الشخص الذي يكلمه يتكلم بلغة غير اللغة العربية أو لعله يكلم أحدًا غيره، لكن يد الغريب استقرت على كتفه توقفه وقد كرر جملته الأولى. استفهم منه عن مقصده فأوضح بأكثر من أسلوب دون جدوى. يئس المغترب من الفهم وقرر الانتهاء من المسألة بتحمل الصعود ست طوابق فهي أيسر من فهم ما يقوله هذا الشخص الغريب.

بعد عناق حار مع ابن العم استأذن في أخذ حمام ساخن ليزيل عنه تعب الرحلة وما تلاها.

اعتذر ابن العم عن عدم عرض هذا الحمام على زائره من تلقاء نفسه لأن الاشتراك لا يشغل سخانات المياه، وبالتالي فالاستحمام في هذه الحالة، إما أن يكون بمياه باردة أو أن يؤجل حتى عودة كهرباء الدولة بعد 4 ساعات من الآن مبدئيًا.

هو يزداد استغرابًا ومسألة الاشتراك وكهرباء الدولة التي فر منها في الأسفل وجدها بانتظاره هنا في الأعلى، وقد استعصت على فهمه، وهو صاحب الشهادات الجامعية ورجل الأعمال الناجح.

شرح ابن العم المسألة بشيء من التبسيط مخبرًا العائد بأن البلاد تعاني أزمة كهرباء، وبأن التقنين يصل حد ال16 ساعة في اليوم وبأن المولدات هي التي تقوم بتعويض النقص لكن الاشتراكات تكون بطاقة ضعيفة حتى يوفر المواطن على جيبه المرهق بالكثير من الأعباء.

سأل منذ كم شهر هذه المشكلة. فكانت نفس ابتسامة سائق سيارة الأجرة والشرطي تقابله مع إجابة مقتضبة «قد تكون 20 سنة أو تزيد».

نظر فيما حوله مفكرًا لعله أضل الطريق وهو الآن في بلد إفريقي موغل في التخلف، فما يعرفه عن لبنان من بعض البعثات السياسية التي زارت أستراليا حديثًا أنه بلد حضارة وسلام واقتصاد ينمو وحياة رغد، وعيش كريم.

لم يطل شروده لأن صوت الصديق ارتفع ليدعوه لأخذ قسط من النوم، ومن ثم يذهبا في مشوار، وبعد ذلك يستحم على أمل أن تكون الكهرباء لم تخلف موعدها هذه المرة على شرف المغترب العائد بعد طول غياب.

رغم ازدحام الأفكار في رأسه ودهشته التي تتعاظم مع كل لحظة يقضيها في وطنه إلا أنه نام نومًا عميقًا مطمئنًا.

أيقظه ابن العم وقد دعاه لعشاء ملوكي أتى به من أفخم المطاعم

القريبة. عشاء لبناني على الأصول. كم اشتاق هذه الأطعمة. إنه بعد كل هذا الزمن وجهًا لوجه مع التبولة، والحمص اللبنانيين الأصليين غير المقلدين ولا المزورين.

أكل بجوع ثلاث عقود ومن ثم تبخرت فكرة المشوار، وفكرة الحمام الساخن، ولم تحل محلها إلا فكرة العودة إلى السرير. نفذها جارًا معدته المتثاقلة بأطعمة لم تعد تألفها، وقضى ليله متقلبًا بين صحو ومنام دون أن يستطع حراكا خارج حدود السرير.

مع خيوط شمس الصباح الأولى استيقظ. حيته شمس وطنه ناشرة الدفء في أوصاله لأول مرة منذ ثلاثين سنة، فشمس الغربة أحرقت جلده وما استطاعت يومًا أن تداعب شيئًا في داخله إلا مواجع الفراق.

خرج إلى الشرفة بعد أن رأى ابن العم لا يزال يغط في نوم عميق. لم يرد أن يغادر المبنى، ولو بنزهة قصيرة لكي لا يصادف فيلسوف الأمس الذي أرهقه بقصة المصعد والاشتراك.

انتظر ساعتين وثلاث فلم يستيقظ ابن العم.

أيقظه وقد تأخر الوقت وبالطبع تأخر عن وظيفته أخبره بتثاقل أنه اليوم في إجازة احتفالًا به.

وبعد أن فرك عينيه وتذمر قليلًا لأن الوقت لا يزال مبكرا. ذهب ليطرد بقايا النعاس بغسل وجهه وببعض القهوة.

من الحمام خرجت شتيمة وخرج بعدها ابن العم لا زال غير مبلل الوجه. لعن شركة المياه والقائمين عليها معرجًا على أصحاب الصهاريج

وما بينهما بألفاظه الغاضبة.

شرح باقتضاب دون سؤال بأن المياه في هذه الأيام الصيفية تشح لعدم ادخارها الصحيح في الشتاء، وبالتالي فهي تنقطع بشكل دائم ما يفرغ خزانات المواطنين ويضعهم تحت رحمة أصحاب الصهاريج الذين يستغلون الوضع خير استغلال فيرفعون الأسعار أضعافًا مضاعفة. لم يرد المغترب أن يدمر نهاره كنهاره السابق الذي لا تزال آثاره، لم تمح فاكتفى بهزة من رأسه حامدًا الله على أن المياه كانت متوافرة عندما غسل هو وجهه قبل ساعات.

ثلاثة أيام قضاها العائد بصحبة ابن عمه الصديق الذي أخذ إجازة من عمله حزنًا على وفاة جدته المتوفية منذ عشرين عامًا. أيام حاول فيها بكل حب أن يعرف العائد على معالم الوطن. لكن أغلب المشاوير كانت تنتهي بنوبات غضب من العائد الذي يرى أحلامه تنتحب أمام عينيه قهرًا لكل منظر جبل نفايات أو شخص ينتهك إشارات المرور أمام عيني شرطي السير المغمضتين، أو في انتظار كهرباء نسيت إنه وقت حضورها، ومياه تحتاج إلى مئة دعوة قبل أن تصب دقائق في الخزان.

كانت عيناه رادارين يلتقطان كل ما كان ابن العم يراه طبيعيًا فيراه شاذًا خانقًا. رائحة مداخل بيروت، مناطق كانت يوما ما أحراجًا فأصبحت مبان متلاصقة حد التداخل، طرقات غير معبدة، حفر مليئة بقاذورات وغيرها مما لم يستطع أن يحتمله.

طلب في اليوم الثالث غداءً محترمًا يعيده إلى أيام العشق البريء الأول،

عندما كان محل الفلافل هو الملتقى وتدليل الحبيبة يظهر بسندويش بخضار زيادة.

طبعًا لم يسأل عن محل الفلافل الذي كان في حيهم في بيروت لأنه يعلم أنه لم يعد موجودًا، فطلب من ابن العم تعويضًا بمعرفته فكان المحل في حي شعبي بسيط تداعت معظم جدران منازله الصغيرة المتجاورة بفوضى.

الفلافل كانت لذيذة ولكن الحديث بعدها طير اللذة وقطع عليه انسياب شلالات الذكرى.

تكلم ابن العم وأطال عن سعادته بوجود ابن عمه في الوطن بعد كل هذه السنوات التي قضاها بعيدًا مثنيًا على وطنية صادقة،لم تنقص منها الغربة ومباهجها ولو قليلًا. وأخبره أنه يرغب باستغلال هذه الفرصة لحثه على القيام بواجبه المقدس بالتصويت في الانتخابات النيابية التي ستكون بعد أشهر، والحملات على وشك البدئ تشير إليها بعض الصور المنتشرة هنا، وهناك ومنها ما رآه على جدران المبنى الذي يقطنه.

سأله عن المرشحين وعن برامجهم، فسمع عائلات يعرفها. أليست هي نفس العائلات التي كانت تحكم الحواجز المتنقلة، والكمائن والتصفية بتهمة تحملها بطاقة هوية؟!.

استفسر عن ذلك فأجاب بأن أيام الحرب ولت إلى غير رجعة وعليه أن يطردها من خياله، والأيام الآن لشباب المستقبل المختلفون عن آبائهم الذين كان البعض منهم استطرادًا مرغمين على ما كانوا يقومون به

كدفاع مشروع عن النفس.

فهم المغترب كل شيء. إن شباب المستقبل هؤلاء هم إما أبناء الزعماء السابقين أو أحفادهم ومن أعلم بالمهنة إلا من ورث أسسها عن الأب، والجد، والسياسة، والزعامة في النهاية مهنة!.

تقززت نفسه من كل الحديث، وكاد جسده يلفظ سندويش الفلافل، وكل ذكريات الزمان الجميل دفعة واحدة.

طلب تأجيل الكلام في الموضوع والعودة للمنزل.

في طريق العودة لمح سيارة تحمل شعارًا لحركة مجتمع مدني تجوب الشارع، وهي تعلن عن مظاهرة حاشدة لرفض الأوضاع المتردية التي تعيشها البلاد،ولاستنكار التسلط والقوانين الانتخابية التي تسرق أصوات المواطنين معدد أنواع الضرائب العجيبة التي لا تطال سوى ذوي الدخل المحدود، فتفتك برواتبهم بسرعة أكبر من فتك الفائر بوسائد منزل مهجور.

هذا هو الحل يظهر له الآن. ها هي الثورة قادمة ويكفيه شرفًا أنه سيكون مشاركا فيها. عزم على أن يكون مع المد البشري الهادر الذي سيغزو ساحات بيروت ويطيح بكل هذا التراكم من الفساد ولا صوت يعلو على صوت الفقراء والمظلومين إن قرروا الكلام.

انطلق في اليوم المحدد وحيدا دون قريبه الهازئ بالمجتمع المدني وما يسميه أفكاره الهدامة.

وصل الساحة. لا بد أنه من أول الواصلين فعدد المواطنين قليل

بالعشرات .

ساعة مرت فساعتان والعشرات لا تـزداد والهتافات بأصوات مبحوحة. عشرات في مقابلهم مئات من عناصر الأمن المدججين بالسلاح الجاهزين للانقضاض عند أي طارئ. عشرات تحاصرهم أسلاك شائكة تحمي مواقع رسمية لكي لا تسول نفس أحد له أن يقترب منها أكثر من المسموح.

ظلوا عشرات والوقت يمر. سأل من هم بجواره عن الحشد الشعبي القادم. فكان الجواب واحدا أن مثل هذه المظاهرات لا تأتي بحشود ولا أنصاف حشود. أراه أحدهم صور أحدث مظاهرة دعا إليها زعيم أحد الأحزاب للاعتراض على قرار تعيين مدير عام، أراد رئيس حزب آخر تمريره الصور ضاقت بأصحابها قد يكونون عشرة آلاف أو يزيدون.

غصة تملكته ضغطت بشدة على عنقه. دارت الدنيا به دورات ودورات متسارعة. تهاوى أرضًا. رأى بيروت أنثاه الرائعة تتحول متوحشة بأسنان صفراء حادة، وثياب ممزقة، ومخالب طويلة سامة تنشب في كل آماله وأحلامه. رأى النار تشتعل بذكرياته الجميلة وتحولها رمادًا. أشواقه تتبدل إلى مشاعر من قرف وكراهية.

أنثاه المتوحشة تركل الخراب وتتجه إليه تعصر أضلاعه حد الكسر.

انتفض، وقف،اتصل بشركة الطيران اختار الرحلة الأقرب وحجز له فيها مقعدًا وتوجه من فوره إلى المطار.

سيعود إلى هناك فهناك من الآن أصبح وطنه.

فهو لا ينتمي لوطن يحكمه مصاصو دماء يتغذون على دم أبنائه، والأدهى والأمر أن الضحايا راضون يقفون مصطفين مقدمين أنفسهم لأولئك الوحوش دون أدنى مقاومة.

ما عاد ينتمي لبيروت تلك الظالمة التي تتلذذ بطرد خيرة شبابها وخنق المصرين على البقاء حتى النفس الأخير.

هو لا ينتمي لبلد يتآمر شعبه على نفسه مع المفسدين، ولا يجيد سوى الشكوى والكلام الفارغ.

تمنى وهو يصل المطار، لو لم يكن قد أتى في زيارته هذه إلى وطنه. لو أنه بقي حلمًا بلقاء يتمناه. لو أنه ظل الشوق والحب الكبير.

وهو يدخل المطار وقعت عيناه على اثنين ينظران إليه، ويتغامزان ويقول أحدهما للآخر بصوت لم يجهد ليجعله غير مسموع: «أنظر هذا هو المجنون الذي تناقلت صوره الصفحات الساخرة على مواقع التواصل الاجتماعي، والذي كان يقبل أرض المطار ويبللها بدموعه منذ أيام وكأنه يقبل عشيقة».

نظر إليهما نظرة باردة وكأنهما لا يتحدثان عنه. ابتعد عنهما ودخل عابر سبيل يسير مصادفة في مكان لا يعرفه. انتظر فارغ الصبر إقلاع الطائرة. رمى بخراب وطنتيه المهشمة، وماضيه القديم، وعشقه من الطائرة في البحر وهو يسمع صوت المضيفة تعلن عن انطلاق الرحلة.

أمي موجودة فلا خوف بعد الآن

لو قدر لأبي أن يتعرف بأحد القائمين على كتاب غينيس لحجز لنفسه مكانًا بين أصحاب الأرقام القياسية كأسرع شخص إنفاقًا لما معه من مال.

كانت أمي تقول دومًا أن أبي مهما كان مقدار المال الذي في جيبه، في الصباح فهو سيعود حتمًا في المساء فارغ الجيوب.

كان رجلًا كريمًا رغم شح الراتب الذي لا يكاد يكفي الضروريات دون الحاجة للاستدانة ابتداءً من العاشر من الشهر. فهو لا يستطيع أن يرد أحدًا خائبًا حتى ولو كان يعلم أنه يملك أكثر منه. ولا بد أن يدعو القريب والبعيد لشرب فنجان قهوة في منزلنا غالبًا ما يمتد ليصبح غداءً.

تحدثنا أمي عن أيام سفر أبي وتنقله بين دول الخليج فتقول:

«خطبني والدكم وسافر لبعض الوقت ليأتي بنقود تؤمن لنا عرسًا لائقًا وحياة كريمة. خططنا سويًا لترميم منزل أبويه وزيادة طابق في الأعلى نسكنه.

وطالت سنوات السفر ولكن لا النقود أتت، ولا المنزل رمم.

ولأن الزواج لا بد أن يتم قبل أن يبدأ الناس بالكلام في قريتنا الصغيرة

فتزوجنا وسكننا مؤقتًا مع أبويه في نفس المنزل محولين شبه غرفة، كانت تستخدم لصنع الخبز ولتجميع المؤن إلى غرفة لنا ندبر أمورنا فيها حتى يأتي الفرج القريب.

تزوجنا وأنجبنا طفلين والفرج القريب لم يأتِ.

توفي والد زوجي، فلم يعد في المنزل إلا أمه فكانت ذريعة لإقناع أنفسنا أن مسألة الترميم، وبناء الطابق الجديد يمكن تأجيلها قليلًا حتى يعود من السفر بحال أفضل.

لطالما وعدني في رسائله بأن إجازته القادمة ستكون مختلفة، وإنه سيحمل فيها الرخاء لي وللطفلين فهو استلم ورشا طلاء لقصور أثرياء، والأرباح حتما لا يستهان بها.

بعد كل رسالة من هذا الصنف كنت أبدأ برسم الخطط لشراء خزانة بدل تلك المتآكلة، وثلاجة جديدة عوضًا عن شبه الثلاجة التي نملكها وغسالة على الطراز الحديث. وكنت أذهب بآمالي بعيدًا فأختار نوع، ولون طلاء جدران طابقنا المنتظر وكيفية تقسيم الغرف.

لكن مع حضور زوجي في الإجازة وفي أوج الأحلام تأتيني الصدمة بأنه عاد دون أي من الأرباح التي تمنيناها وبأنه لم يحصل إلا على القليل أنفق معظمه في شراء هدايا للأقرباء جميعًا إضافة إليّ أنا والأطفال.

كنت أسأله عن كيفية تبخر المدخول الموعود الذي من المفترض أن الورش أتت به فيجيبني بأن كل ما حصل عليه من مال دفعه للعمال الذين يساعدونه في الورشة فهم أصحاب عائلات لا يمكن أن يتركوا بلا مال.

أما بقية المال فيبقى له في ذمة صاحب الورشة. يطالبه به مرة أو مرتين فيخبره أن الأمور ليست متيسرة كما ينبغي في هذه الأيام، وبأنه سيأتيه بالنقود مع حبة مسك قريبًا. ثم يخجل أن يطالب للمرة الثالثة فيذهب المال وحبة المسك وآمالي أدراج الرياح».

عاد أبي بعد غربة طويلة بمجموعة تحف أوصى عليها بعض أصدقائه من الهند ليزين بها قصر الإمبراطور الذي نملكه وبديون له في ذمم كثيرين أقلهم ثراءً يفوق ما حمله أبي من مال طوال سنوات عمره.

تنقل بين أعمال متنوعة، وجرب مهنا ومهن، فما استقر في إحداها.

كبرت العائلة فزادت احتياجاتها فتركنا القرية بعد أن عثر أبي على عمل قريب من المدينة. لم يكن الراتب كبيرًا غير أن أجرة أبي شملت منزلًا صغيرًا يؤوي العائلة، وبعض التقدمات العينية التي ساعدت الراتب على الصمود قليلًا.

لم ينقص كرم أبي مع الأيام بل كان في ازدياد. يقرض كل من يطلب منه، ولو لم يكن معه إلا المال الذي سيقرضه، وطبعًا يستحي أن يطالب بالمبلغ المقترض فتترك المسألة لذمة المقترض.

كان منزلنا القريب من المدينة مقصد كل أبناء القرية الذين لديهم أعمال طارئة فيها.

أمي أضحت في وضع لا تحسد عليه فشؤون المنزل المالية هي مبدئيا من اختصاصها ولكن أبي يسلمها الراتب في أول الشهر لينتهي في يومه العاشر بعد أن يطلبه منها على شكل مبالغ صغيرة. هي تعلم أن لا بد من

ادخار المال للطوارئ كحالة مرض أحد الأولاد لكن أبي دائمًا ما يقول لها بأن الله يدبرها عندما تأتي المصائب فلا ضرورة للتفكير بها من الآن.

وفي أحد الأيام والشهر على وشك الانتهاء. البراد خال وجيوب أبي الممزقة، ليس فيها أثر لورقة نقدية.

كل طلباتنا الملحة مؤجلة للشهر القادم والكمالية إلى أجل غير مسمى.

وفي عز الأزمة جاءنا زوار من القرية أتوا لإتمام بعض المعاملات في المدينة، ولكن المشكلة أن المعاملات لا يمكن أن تنتهي في يوم واحد،وعليهم البقاء حتى الغد، ونحن أولاد قرية واحدة وصداقتهم مع الوالد قديمة، فقصدوا منزلنا للمبيت عندنا.

مجيئهم كان مع بدايات المساء وهم من الصباح في حركة مكوكية بين الدوائر الرسمية، والمكاتب المنتشرة بين المباني والطوابق. إذن مما لا شك فيه أن علينا دعوتهم للعشاء، وهكذا كان.

لبوا الدعوة دون كثير إلحاح فوقعت المصيبة الكبرى. أبي لا يملك قرشًا واحدًا، ولا يوجد مطعمًا قريبًا يقبل البيع بالدفع المؤجل، ولا بد من أن نأتي بالطعام جاهزًا احتفاءً بالضيوف، ولا وقت لجعلهم ينتظرون لطهو شيء في المنزل.

رأيت أبي مرتبكًا كما لم أره مسبقًا.

دخل وأمي غرفة النوم للتشاور بعيدًا عن الضيوف في الأزمة للوصول لأفضل حل يحفظ للأسرة ماء وجهها أمام القادمين الممثلين للقرية بأسرها.

دقائق ترقب مرت، ومن ثم كان أبي يغادر الغرفة متمتما بكلام لم

نفهمه. اتجه مسرعًا وغادر المنزل قبل أن يترك لنا مجالًا لأي سؤال.

نصف ساعة انتظار قضيناها مع الضيوف تبادلنا خلالها ألف غمزة، وألفي إشارة مبهمة والفضول يقرع رؤوسنا الصغيرة، ويمنعنا من الثبات في مقاعدنا.

وحلت عودة أبي أخيرًا ميمونة ظافرة وفي يده دجاجتين مشويتين مع توابعهما كعشاء للضيوف المميزين.

أكلنا حتى التخمة وكذلك الضيوف، وكانت سهرة نورتها حلويات جاهزة وفواكه قلما كانت تزور بيتنا.

شكرنا الضيوف في صباح اليوم التالي على كرم الضيافة وغادروا.

احتضن أبي أمي وقبل وجنتيها وقد صاح بأعلى صوته يقول:

«أيتها الغالية لقد حفظتِ بالأمس كرامتي من إهانة كانت ستلاحقني حتى موتي. لقد حميتِ هذا المنزل بتطبيقاتكِ الاقتصادية العجيبة فادخرتِ مبلغ للطوارئ دون أن يشعر أحد

مبلغ من المال مخبأ في بيتنا!!! شهقات دهشة ران بعدها صمت لدقائق لاستيعاب الأمر.

حتى الآن لا زلت لا أعرف كيف تمكنت أمي من تهريب ذلك المبلغ، ولكن الأسرة جميعها من حينها أضحت تشعر بأمان غريب، وهي تعلم أن أمي موجودة عند الحاجة لتأتي من حيث لا يدري أحد بأوراق نقدية لشراء دواء أو لاستقبال ضيف من ضيوف الغفلة.

نذر

- 1 -

يستطيع أن يتوقع المصير الذي ينتظره بسهولة.

بوسعه أن يقسم أن الشمس التي يسير تحتها الآن من شبه المستحيل أن يراها مرة أخرى.

يمكنه أن يروي قصصًا وقصصًا عن الأهوال التي تنتظره في المكان الذي يساق إليه مكبل اليدين بحراسة عسكريين بوجهين بلا أي تعابير.

يبتهل من الآن إلى الله أن يعجل نهايته، فلا يشهد الكثير من فصول الرواية المرعبة التي سيكون أحد المشاركين فيها كضحايا لا كشخصيات مؤثرة. رواية قد لا تجد من يرويها لأحد سوى لجدران لن تتكلم أبدا.

زوجته العروس الجديدة التي وافقت على الارتباط به رغم كل الظروف القاسية التي تعانيها بلاده، وتواطأت معه على الحلم بأيام جميلة وبأطفال يملؤون العمر ورودًا ومباهج لا شك بأن القبلة التي تركها على شفتيها في الصباح قبل أن يذهب إلى عمله ستكون آخر قبلة، وستبقى

نكهتها الساحرة محفوظة لديه إلى أن يلقى حتفه وسيحميها رغم كل ما سيقاسيه.

منذ ساعتين وصلت السيارة العسكرية إلى مكان مقف رمته برفقة الجنديين على عجل، وغادرت مسرعة وطلب منه الجنديان أن يسير معهما تحت الشمس حتى يصل لبوابة السجن أو مركز التحقيق الذي سيقاد إليه بعد أن تم اعتقاله في الصباح، وهو ذاهب إلى عمله في قسم الطباعة في إحدى الصحف المحلية.

لقد انتشرت بعض الإشاعات في الأيام الأخيرة أن هناك مشكلة بين مدير تحرير الجريدة، وأحد رجال النفوذ في البلاد، وكان الجميع في ترقب لأن الصحفيين والمقربين منهم تحت المراقبة الدائمة، وهم في أفضل علاقة مع السلطة فكيف الحال إن أصبحوا من المغضوب عليهم.

رغم كل الإشاعات ظل مداوما على عمله، فهو في النهاية لا كاتب مقالات ولا مراسل، وعمله، يقتصر على التنسيق فقط، وبالتالي ليس له أي علاقة لا بسياسة الجريدة ولا خلافاتها مع أي كان.

لكن اعتقاله في الصباح جاء مغايرًا لتوقعاته، ومبددًا لكل ما طمأن به نفسه في السابق، وقد كان متوجها إلى عمله القريب من بيته راجلًا كعادته. فاعترضته سيارة عسكرية ذات زجاج داكن، خرج منها دون أي سابق إنذار رجلين انقضا عليه ورماه في جوفها، وانطلقت به بسرعة دون أي كلمة.

حاول أن يحتج، أن يسأل، أن يتكلم بأي كلمة فقتلت لكمتين وضربتين

بعقب بندقية رغبته تلك نهائيًا.

سارت السيارة طويلًا. قد تكون سارت لساعتين أو أكثر حتى وصلت إلى أمكنة لا يعرفها رغم أنها في داخل بلده الذي ولد وعاش فيه أحلى أيام شبابه.

شل الخوف والقلق تفكيره طوال مشواره القسري، وظلت عيناه تائهتان بين الطرقات التي لم يعد قادرًا على تمييز حتى ما يعرفه منها عن ظهر قلب وبين العسكريين جامدي الملامح، والسائق الذي لم يرفع عينيه عن الطريق أمامه، ولو لثانية واحدة للتعرف على راكب السيارة المعتقل.

بعد السير الطويل تحت الشمس تراءت لعينيه بوابة سوداء مرعبة الضخامة، ما أن اقترب منها حتى فتحت أمام خياله جحيم يستعد لالتهامه.

رغم الإعياء الشديد، والعرق المتصببمن كل أنحاء جسده، وقدميه غير القادرتين على حمله، رغم كل ذلك تمنى أن لا يتوقف أمام تلك البوابة، وأن يتابع السير ولو سار أيامًا وليالٍ لا تنتهي.

أشار إليه أحد العسكريين بالتوقف مديرًا وجهه نحو البوابة، وأخذ الآخر يتكلم في جهاز لاسلكي صغير يحمله.

- 2 -

مرت ساعتان وهو يذرع الممر الطويل ذهابًا وعودة دون أن تتوقف قدماه للحظة.

فكره شارد لا يعي شيئًا مما يدور حوله.

أينما حول عينيه، لا يرى سوى طفله الصغير بعينيه الغائرتين ووجهه الشاحب، وشفتيه المزرقتين ممدد على السرير في المستشفى، وقد اخترقت جسده الطري أنابيب وأنابيب، وحاصرته معدات غريبة لا يكاد يفقه عمل معظمها.

طفله الذي عاش أسابيع معلقًا بين الحياة والموت متأرجحًا بين الوعي واللاوعي على إثر حادث سير مروع قضى على جميع زملائه في حافلة المدرسة، ولم يبقَ إلا هومصابًا بجروح خطيرة.

هل كان يعتقد ذلك العسكري متبلد المشاعر الذي قضى في حراسة السجون، ومراكز التحقيق أعوامًا طويلة أنه سيحب شخصًا إلى هذا الحد هو الذي يشك حتى في حبه لنفسه.

إنه عسكري شهد أهوالًاوأهوالًا. وقضى زهرة شبابه يراقب تطبيق

أحدث ابتكارات سحب الاعترافات التي توصلت إليها بلاده المبدعة في هذا المجال، فتسكنه تلك المشاهد في نومه لتحيل ساعاته أشد هولًا من عذاب المعذبين.

لا يدري أي حظ عاثر رمى به في هذه المهنة، ولكنه يدري أنه الآن تقبلها، وأصبح خاليًا من المشاعر إلى درجة أدهشته، فأصبح أداءه لمهمة دفن معتقل سياسي قضى عن طريق الخطأ أمرًا روتينيًا يؤديه بآلية.

منذ سنوات وهو يعيش حياته بشكل عادي بروتين، لا يحيد عنه.

هو متزوج من امرأة من قريته اختارتها له أمه دون أن يعترض، فالعسكري لا يعترض. وزوجته خير المرأة في تقاليد أسرته مطيعة إلى درجة الخضوع الكامل. هي هي إن كان يكلمها أو لا يكلمها، إن كان غاضبًا أو هادئًا، إن كان ساكنًا أو في نوبة تشعله شهوة. هي تؤدي فقط ما يطلبه منها، وكأنها آلة لا تحس ولا تتعب أو تشتكي.

أدى المهمة التي يتم من أجلها الزواج على خير وجه، وأنجب وليًا للعهد.

إلا أنه منذ ولادة ذلك الطفل ولد في داخله شيء جديد. شعور لم يألفه لم يكن يدري أهذا ما يسمونه الأبوة، ولم يشغل نفسه بذلك السؤال المعقد. كل ما يعلمه أنه أحب الصغير بجنون. حمله بين ذراعيه برقة، دلله، لاعبه، أركبه على كتفيه وسار به مسافات. راقب خطواته الصغيرة المتعثرة مرتبكًا أكثر منه. تلقاه عند السقطة الأولى بيدين مرتعشتين فقدت خشونتها العسكرية.

رباه بكل الحب حتى وصل عامه السابع، وكان يوم الحادث.

لا زال يذكر لهفته على الصغير. صراخه في المستشفى وهو يطلب من الأطباء الاهتمام بالطفل، ويتوعدهم بالويل والثبور إن شك منهم بأي تقصير. أرغى وأزبد ثم إنهار أخيرًا، وبكى ضاربًا بعرض الحائط تعليمات الأسرة والرؤساء، بأن الرجل لا يبكي أبدًا.

تجند الجهاز الطبي لخدمة الطفل المصاب، ولكن الحالة ليست بالبسيطة والطفل إن ظل حيا قد يعيش مشلولًا للأيام الباقية من عمره.

العمليات الجراحية المطلوبة دقيقة للغاية، وجسد الطفل ضعيف قد لا يحتملها.

كان يقف بجانب السرير يقتنص إشارة حياة في طفله غير القادر على الحركة.

رآه يومًا بعد يوم يهزل ويتضاءل أمام عينيه وردة ذابلة على وشك اليباس.

وكان يوم التهور الأكبر، وسلسلة الجراحات على وشك أن تبدأ. بلل السرير بدمع مدرار، ورفع يديه إلى السماء متضرعًا. سأل الله أن يبقى له صغيره ونذر ذاك النذر المجنون.

نذر بأن يساعد سجينا سياسيا على الفرار إن شفى الله له ابنه وأعاد له ابتسامته، وتدفق الحياة في جسده الجاف.

مرت جميع العمليات على ما يرام، وبدأت إشارات وعي تظهر على الصغير وبات يستطيع القيام ببعض الحركات البسيطة .

منذ ذلك الحين أصبح كُلما نظر في عيني طفله، راقب تحسنه يرن صدى نذره في أذنيه ويلح عليه.

حاول أن يتجاهله فتنفيذ هذا النذر هو ببساطة مشروع انتحار.

لكن ما حصل بالأمس لم يترك له مجالًا للتردد. فتجاوب الصغير مع العلاج ضعف، وحركاته تباطأت،وفقد الوعي أكثر من مرة.

بالنسبة له هناك تفسير وحيد لكل ما يجري أنه لم يفِ بنذره، فإذا لا بد من الوفاء وليكن ما يكون.

استخرجه من شروده صوت في جهازه اللاسلكي يعلمه بحضور سجين يجب استلامه.

- 3 -

فتحت البوابة، وأدخل المعتقل. هو مرتعش خائر القوى. أطلق نظراته الأخيرة إلى الخارج، وودع الشمس على عجل. أسر لزوجته بأنه يعشقها وهو يعلم إنها لن تسمعه.

سقطت عيناه المتعبتان على وجه الحارس الذي كان باستقباله. فوجئ بأنه يبدو أكثر منه شحوبًا. أقسم بأنه يتخيل أشياءً لا أساس لها.

قال أحد العسكريين للحارس بأن التسليم قد تم وعليه أن يقوم فيما بعد بالتوقيع على الاستلام، وأن يزور توقيعه هو أيضًا بأنه قام بالتسليم مشيرًا بأنه زميل منذ زمن، وأهل ثقة ويمكنه تدبر أمر الشكليات وحده.

خرج العسكريان وابتعدا وأغلقت البوابة.

أصبح الحارس والمعتقل وحيدين في الممر الطويل.

كل الغرف مغلقة ومكتب التحقيق الذي سيقاد إليه السجين بعيد في آخر الممر.

أشار الحارس للسجين بأن يسير خلفه، ولكنه لم يسر خطوتين حتى توقف.

ذهل السجين بما يحصل. الحارس فعلا أكثر ارتباكًا منه.

فتح الحارس البوابة على مهل وأشار للمعتقل بالخروج، ولكن المعتقل لم يقم بأي حركة. هو مسمر وظهره للبوابة المفتوحة.

إنه يعلم أن الأمر مجرد مناورة لإمساكه، وهو يحاول الفرار لجعل تهمته أكبر.

دفعه الحارس للخارج مشيرًا إلى طريق ترابية بجانب البوابة قائلًا بكلمات مقتضبة: «من هنا يمكنك أن تنتقل للقرية المجاورة دون أن تخاف الدوريات العسكرية وعليك تدبير أمورك بعدها، هيا لا تتردد فالفرصة لا تأتي مرتين».

لم يفهم عامل قسم الطباعة الذي جر للتحقيق فقط، لأنه يعمل في مبنى جريدة كيف يقوم حارس مقر التحقيق نفسه بعرض النجاة عليه بهذه التلقائية.

لم يعطه الحارس مجالًا للتفكير أو حتى نطق كلمة واحدة جره بغلظة خارجًا وأغلق خلفه البوابة.

الآن عادت البوابة في مواجهته كما كانت منذ قليل، ولكن هذه المرة لا عسكري يطالبه بالدخول.

من بعيد لمح مجموعة من الجنود تتحرك بتثاقل. أطلق ساقيه للريح قبل أن يلمحه أحدهم باتجاه المكان الذي أشار إليه الحارس الذي لا يدري من أين هبط ليخلصه.

ركض وركض مسافات ومسافات حتى وصل شجرة كبيرة رمى

بنفسه تحتها، ونظر حوله فلم يجد أي شيء يدل على وجود الخطر.

تبادل نظرات ود مع الشمس المنطلقة، بتأن لتستحم في البحر وتغسل عنها تعب يومها الطويل.

قبضت أصابعه حفنات من التراب الطري وأطلقتها بعبث طفولي في كل الاتجاهات.

ماذا سيفعل في الغد؟

هل اكتشفوا فراره؟

هل هم يطاردون كل أثر له الآن؟

كيف سيدبر لقاءه المنتظر بزوجته ومتى وأين؟

فلتذهب كل تلك التساؤلات بعيدًا الآن، وليصمت الخوف ويهدأ إلحاح المستقبل. ولتستيقظ الأحلام من راقدها وتقتسم المساحات ولتشكل كل شيء على هواها. ولتطل إغمائه للعينين لعل الصباح يشفق على الجسد المستلقي في أرجوحة النوم فيبطئ القدوم.

انتقام لرجولة لم تمس

اتفقا على اختصار شهر العسل بيومين فهو مستعجل للعودة إلى الاغتراب ليجمع المال ليرجع إليها بعد سنوات قليلة بقصر وسيارة، وعمر كله عسل.

قضت أيامها في غيابه على قيد الانتظار. انتظار مكالمة مسروقة من العمل، انتظار رسالة مقتضبة تضيء قلبها قبل أن تضيئ شاشة هاتفها المحمول. إيقاعات نبضها كانت تنظمها كلماته بطء، وسرعة،شدة، وهدوء.

مرت الأيام، وأخذت تلميحات، ومن ثم همسات فتصريحات من أصدقائه المقربين حول رغبتهم في تعويض النقص الذي تركه غيابه. فهي في النهاية أنثى تحتاج لحضن دافئ وهم خير المتبرعين بهذا الحضن.

حبها له على الرغم من وحدتها كان أكبر من إغراءاتهم.

كثيرًا ما كانت تجد نفسها وحيدة في سرير بارد لكنها آثرت الصمود والوفاء.

وكم من المرات بحثت عن ضمة حانية، وصدر ترمي برأسها عليه

فما وجدت إلا رأسها مطروحًا في الفراغ وقد ذبلت العينان من طول التحديق في شاشة في انتظار ظهور اسمه، وأرهقت الأذنان من طول التحفز لرنين يأتي برسالة غرام منه حتى ولو كانت مقتضبة أو معلبة مبتذلة.

كانت كلما ازدادت صلابة في وجه الطامعين باقتحامها زادوا إصرارًا على المحاولة. وتكررت المناورات وتنوعت واستمر العناد والثبات على الوفاء إلى النهاية.

أرادوا أن يثأروا لرجولتهم التي رأوا بأنها مطعونة في الصميم.

تحولوا عنها إليه. أخبروه بأنها تعيش في غيابه قصص غرام لا تنتهي، متنقلة بغنج لعوب وخفة فراشة من يد عاشق إلى أحضان عاشق آخر.

هو لم يحتج منهم إلا لقليل من الجهد فنسي أهمية عمل متراكم ووقت ثمين لا ينفقه إلا في الكسب.

حملته أول طائرة متجهة إلى الوطن، وقد أقسم على الانتقام فليس أشد إيلامًا من جرح الزوج المخدوع.

دخل شقتهما على حين فجأة. التقت العينان. سعادتها بالمفاجأة كانت أكبر من وعيها فهي ما توقعت يومًا أنه مستعد لأن يقوم بمثل هذه الخطوة من أجلها وبهذا الشكل الرومانسي.

تجمدت في مكانها مشدوهة للحظات ثم سرعان ما انطلقت مشاعرها الأنثوية المكبوتة تيارًا عاصفًا في كل جسدها المشتاق. فتحت

الذراعين لاحتضانه لكن وقفته المتجهمة، وكمية الحقد الذي صبته عيناه، لم يوقفا تدفقها فحسب بل لقد كادا أن يوقفا جريان الدم في عروقها.

لم يمهلها لتقول شيئًا. رمى عليها يمين الطلاق، و ووابل من الشتائم، ولم ينس أن يذكرها بكل ما كان يحضره لها من أيام سعيدة، وبكل ما كان يخططه من أجل مستقبلهما. لم تفق من سكرة ذهولها إلا بصفعة رددت صداها أرجاء الشقة. وبدفعة واحدة كانت خارج بيتها الزوجي وقد أقفل الباب من خلفها.

جثة عائدة من بين الأنقاض

إنه آت.

آت ليعيدالابتسامة إلى محياها.

آت لينسيها لوعة الانتظار.

آت ليجيب عن آلاف الرسائل التي أرسلتها إلى بريده، ورقمه طوال مدة الفراق، وليعتذر لها عن جملة إن الرقم الذي تحاول الاتصال به مغلق التي كانت تواجهها عندما تطلب رقمه مع استيقاظها في الصباح، وقبل أن تغفو في ساعات المساء المتأخرة.

سيعود وستخبره أنها فعلت المستحيل لتعثر له على أثر دون جدوى، وبأنه ما فارقها ثانية ولا غاب عن قلبها قيد نبضة.

سيلتقيان حقيقة وستراه وسيطغى حضوره الآسر على كل كيانها.

هذه المرة لن يكون اللقاء ومضة من حلم تنتهي سريعًا، وتخلف وراءها نهر دموع يغرق الوسادة.

ستعوض طلته كل عذابها فنظرة حب منه تنسيها العالم بما فيه.

سيقرأ لها اليوم مئات القصائد التي نظمها فيها أثناء الغياب.

لن تقبل منه عذره القديم إن طلبت أن يرتجل فيها بيت شعر بأن حضورها هو القصيدة الأجمل التي تختصر كل القوافي، وتترك قصائد الشعراء في مواجهتها كلامًا غير موزون.

اليوم ستختصر شوقها بجملة أو جملتين، وتصمت لتترك كل المساحات يملأها بصوته، وليس أبرع منه في نظم الكلام على كل البحور مشكلًا إياه كما يشاء: نص عشقي، خطبة سياسية ملتهبة، محاضرة في الأخلاق، والمبادئ، أو حتى تحليل لمباراة كرة قدم...

أصابع نحيلة تطرق برفق على الطاولة أمامها.

تخرج من شرودها. تجفل للمنظر الذي تراه.

تفرك عينيها جيدًا. لا بد إنها غفت فشاهدت كابوسًا، ميت يخرج من أحد أفلام الرعب!

تربيته خشبية على كتفها تؤكد لها بأنها مستيقظة.

تدقق النظر.

هذا الشبح الواقف بجانبها هو حبيبها المنتظر، ولكن دون شحمه ولحمه.

تقف لاستقباله. يسلم عليها ببرود وبصوت يأتيها من أودية سحيقة.

يجلس صامتًا. تحاول أن تستدرجه للكلام فيجيب عن تساؤلاتها بكلمات مقتضبة منزوعة الشاعرية، وخالية من حرارة العشق.

تدعوه لشرب فنجان قهوة لا يمانع.

يرفع فنجانه إلى شفتين متيبستين ببرود. حتى شربه للقهوة تبدل هو

الذي كان يشرب فنجانه رشفة واحدة لأن القهوة تفقد مفعولها، إن لم نباغت بها خلايا الدماغ مباغتة.

لو كانت الأكثر تشاؤما ما توقعت مثل هذا السيناريو للقاء منتظر بعد ثلاث سنوات عجاف دون أي معلومة عنه.

لقد وضعت في حساباتها أن الحرب لا بد أن تكون تركت عليه آثارًا، ولكنها لم تتصور أنها تركته رمادًا خامدًا بهذا الشكل.

عندما عاد إلى سوريا بعد أن أنهى دراسته الجامعية في بيروت حيث ولد حبهما وكبر سعة قلبين بحجم العالم كان شعلة متقدة من حياة. وعدها بعودة قريبة بعد إجازة مع الأهل.

ملت منهما برامج المحادثة في الأيام الأولى. طالت الأيام وأصبحت شهورًا ولكن المحادثات تضاءلت مع الانقطاع المتكرر لشبكة الإنترنت في بلاده التي بدأت رقعة المعارك فيها تتوسع.

ما أن وصلت الاشتباكات إلى مدينته حتى انقطع التواصل نهائيًا.

سيطرت فصائل معارضة على المدينة. ومن ثم توزعت مناطق نفوذ بين فصائل وفصائل مضادة بتسميات وأيديولوجيات مختلفة. عمت الفوضى كل شيء وضاع أثر الحبيب في تلك الفوضى.

ثم قام جيش النظام بحملة على المدينة فاستردها أنقاضًا.

أعلن عن اتفاق الاستسلام منذ أيام، وها هو حبيبها يخرج مع الخارجين ليراسلها من بيروت منذ ساعة ويطلب لقاءها في المقهى الذي شهد على نظرات إعجابهما الأولى،ووعدهما الأخير قبل السفر بدقيقتين.

وها هو أتى إلى اللقاء بملامح لا تعرفها.

قالت له بأن عليها المغادرة فلم يحتل عليها للمكوث أكثر. وقف وسار بعيدًا دون أن ينطق بحرف.

دموعها لم تتوقف منذ أن غادرت المقهى.

تجلس في غرفتها وحيدة تفكر بما جرى. تفكر بحالهما الآن.

تحاول أن تعثر على طريقة لتعيد إليه جذوة الحياة المفقودة. تتذكر بأنها لا تعرف له عنوانًا في بيروت. ستتصل بكل الأصدقاء المشتركين وتسألهم أكانوا يعرفون عنه شيئًا فلعله كلم أحدهم أو هو الآن معه.

على شاشة هاتفها المحمول المضاءة تظهر رسالة إلكترونية منه تبتسم تفتح الرسالة وتقرأ:

أيتها الرائعة

أعرف إنه ليس من حق الأموات أن يقتحموا على الأحياء حياتهم، هكذا دون سابق إنذار.

ليس من حقهم أن يجلسوا معهم على طاولة كانت محجوزة لضحكات الأمس وأفراح الماضي وأن يشربوا معهم فنجان قهوة.

من واجبهم أن يتركوهم للاعتياد على الفراق حتى يتابعوا حياتهم بسلام.

من واجبهم أن يتركوا الزمن يتكفل بإطفاء لهيب مشاعر العشق، وتسكين آلام البعد لا أن يوقفوا بأيديهم عقارب ساعة النسيان.

أنا أعلم كل ذلك ولكن لقائي بك اليوم كان ضروريًا.

كان لا بد لي من أن أحاول بث الحياة في جسدي الميت لآخر مرة.

حاولت أن أستعين بصوتك ليسكت بكاء الأطفال، وصرخات الجرحى أثناء العمليات الجراحية الطارئة التي أجريت في غياب أدوية التخدير وعويل الأمهات الثكلى وهن يلملمن أشلاء أبنائهن من على طرقات، قصفت بالبراميل المتفجرة أو من شارع فجر بسيارة مفخخة لا يعلمن من فجرها، ولا لماذا قام بذلك قبل أن تجعل كل تلك الأصوات رأسي شظايا.

أردت أن أستعين بوجهك المشرق لتخليصي من أعضاء المبتورين، والمشوهين المبعثرة التي سكنت عيناي ورفضت أن تفارقهما.

تمنيت أن تعيد إلى صوتي جلستنا في مقهى حبنا القديم عذوبته وللساني شاعريته. أن تجعل الكاتب الرقيق الذي في داخلي ينتفض ليكتب رسالة في الحياة لا أوراق وفيات معظمها مجهولة الأسماء.

لكني يا حبي الأول والأخير لم أستطع.

لقد سحقتني الحرب حتى العظام لكنها رفضت إعطائي تأشيرة مغادرة إلى القبر. تساقط جميع أحبتي من حولي ورحلوا بعيدًا وبقيت أنا أشهد الفجيعة تلو الفجيعة، وتسكن عقلي المأساة تلو المأساة.

فقدت كل شيء.

كلما أمسكت القلم لأكتب استحال حبري دمًّا منسكبًا على أوراقي.

مبادئي حول الإنسانية والعدل والحضارة أعدت النظر بها مليون مرة في مدينة الحصار والموت والدمار.

لقد تلاشت وأنا أشاهد الصديق يغتصب شقيقة صديقه، والأب يشي بابنه لهذا الطرف أو ذاك، والعائلات تصفى دون ذنب.

ارتجت آرائي السامية، وتزلزلت وأنا أرى مراهقًا يهدد ببندقيته أعزلًا في عمر جده.

اختلطت أفكاري وما عدت قادرًا على تمييز الصواب من الخطأ والمستشفيات تنسف بالبراميل المتفجرة، والنساء تباع وتشترى في الأسواق، والشباب يخطفون من بيوتهم ليساق بهم إلى المجهول. أما العالم في الخارج فمتفرج لا يشير ولو بإصبع احتجاج.

ما عاد هذا القلب قادرا على الحب، وقد ذبحت طفولة صغار بلادي ومسخت براءتهم مسخًا فالفجائع في مدننا المنكوبة أكبر من استيعابنا نحن فكيف يستوعبها عقولهم الصغيرة؟

أبناء هذه الحرب هم مشاريع مجرمين أو معقدين أو فاشلين يتسولون اللقمة.

لقد رأوا مدارسهم تستباح وأساتذتهم يجلدون أمام أعينهم. عاشوا في مقبرة جماعية تنتشر الجثث فيها دون شواهد. عرفوا الجوع، والعطش، وانتهاك حرمات البيوت. استبدلت قصص قبل النوم بالقذائف وحكايات الاشتباكات والرصاص الطائش.

امتزج الخير والشر أمامهم وما عادوا قادرين على رسم خط بينهما، فالحامي قد يكون القاتل، والضحية قد تتحول في لحظة إلى الجلاد.

أنا عائد يا أيتها الرقيقة من بلاد لا يعرف القاتل فيها ذنب القتيل ولا

المقتول لماذا قتل.

أنا عائد جسدًا بلا روح وأيامًا بلا هدف.

لم ينج الذين خرجوا من جحيم مدينتي من الحرب بل هم أكثر ضحاياها فكراماتهم مرضوضة متصدعة، وأحلامهم سفك دمها للقطرة الأخيرة. لم يموتوا ولكن رائحة الموت تسكن كل مسامهم.

لم يفقدوا مع من فقد ولكنهم افتقدوا أهلًا، أصدقاء، ووطن.

لم يغيبهم معتقل، ولكن سجن الخوف والمآسي سيهصرهم بين جدرانه حتى آخر زفرة حياة.

أنا آسف أيتها الرائعة فلم يعد في هذا الخراب مكانًا لحب، ولم يعد هناك مجالًا للبقاء.

عليكِ أن تكملي الحياة بدوني. لا تحاولي أن ترسلي لي رسالة أو تبحثي لي عن عنوان ففي اللحظة التي تقرئين فيها رسالتي أكون قد سافرت حاملًا حقائب أنقاض أحلامي، وخيبات بمساحة وطن خرب. سأجرجر عمري المثخن بالجراح، وأمضي وستبقين نسمة عطر تداعب أنفي لتخفف عنه رائحة التعفن التي طالت كل شيء وستظلين حبًا صادقًا صدق شروق الشمس على بقايا مدينة، وعميقًا عمق الجرح وطاهرًا طهارة دماء الرضع التي خضبت يدي وأنا أجري بهم إلى أشباه مستشفيات،افتقدت الأطباء أيام كنت أعمل مسعفًا في مدينة الحصار، والحرب، والدمار.

السرقة الأولى.. والأخيرة

عاتبتني بشدة. قالت بأني ناكرة للجميل، وقاسية القلب لا أذكر ماضيا ولا أفكر بعزيز. طأطأت رأسي وأنا أحمل سماعة الهاتف بيد مرتجفة وقد علت وجهي حمرة خجل. فقدت صوتي لبرهة. قلت لها بعد لحظات صمت أنها محقة في عتابها، ولكنها في القلب فهي وأولادها من أحب الناس إلي ولكن المسافات، وهموم الحياة، والعائلة لم تترك ليدقائق أقضيها في الاتصال والاطمئنان عليها.

لم أجرؤ أن أخبرها بأني أضعت رقم هاتفها الذي كتبته في آخر زيارة لمنزلها منذ أشهر أو ربما سنوات.

ما أن انتهت المكالمة حتى وجدتني أعود طفلة أركض في أرجاء ذلك البيت الجميل النظيف المرتب دائمًا.

منزل خالتي له مكانة خاصة في قلبي ففيه عشت الكثير من أيام طفولتي حيث كنا نبقى هناك في أثناء وجود زوج خالتي في الخدمة العسكرية لكي لا نتركها وأولادها الصغار وحيدين.

كانت تحيط بالمنزل أشجار تلفه من كل جانب تحتضنه لتحميه من

لهب أشعة الشمس وحرها القائظ، فلا تأتيه الشمس إلا متسللة بين الأغصان برفق ومستبدلة سطوة نيرانها الحارقة بدفء محبب، وخيوط من نور تجعل المنزل أكثر روعة.

تحت تلك الأشجار وحولها كنت وأبناء خالتي نلعب لساعات. نتراكض. نتسلق الأغصان ونلملم الأوراق المتساقطة لنمزقها، ونضعها في أوان لنرى في النهاية من الأسرع في عمل صحن الفتوش الأكبر، أو نحاول تطييرها في الهواء لنراقبها، ونقيس المسافات التي تقطعها لنعلن الفائز بلقب الرامي الأمهر.

كل شيء كان مسموحًا خارج المنزل أما في الداخل فيسري قانون خالتي الصارم بممنوعاته الكثيرة.

فالتقافز على الأسرة ممنوع، والضجيج في داخل الحجرات من أخطر المحظورات، والجلوس حتى ولو على الأرض لا يسمح به إلا بعد الاغتسال من آثار اللعب في الخارج وتغيير الملابس بكاملها.

لم تزعجني تلك القوانين فالمنزل لم يكن إلا مكانًا للأكل والنوم وكل الأوقات الأخرى هي في الخارج. بل لعلي أستطيع القول بأني كنت أحب أن أمكث في منزل خالتي ذاك أوقاتًا أكثر من الأوقات التي أقضيها في منزل جدتي الطيني الصغير، رغم أن كل الممنوعات هناك لم يكن لها أي وجود.

أحببت التنسيق الذي توضع فيه كل الأغراض في منزل خالتي والبلاط اللامع دائمًا والأسرة النظيفة والغرف الكبيرة. أنا لم أكن أنام في

سرير إلا عند خالتي فنحن كنا فقراء نستبدل الأسرة بفرشات متعددة الاستعمالات مصطفى بعشوائية على الأرض.

لم يكن زوج خالتي ثريًا لكنه كان ميسور الحال نسبيًا خصوصًا وأن زوجته إنسانة مذهلة تستطيع أن تحول القليل إلى كثير ببراعة قل نظيرها.

ما بخلت علي خالتي يوما بشيء من طعام أو شراب، وكانت تعطي جدتي المال كلما تمكنت من ذلك لتساعدها على تربيتي.

أنا يتيمة منذ عامي الثاني، وقد توفيت أمي بمرض مفاجئ في اليوم الأول فلم يطق أبي صبرًا على فراقها فلحق بها في اليوم التالي وتركاني وحيدة.

رفضت جدتي أن أنتقل إلى دار أيتام طالما في جسدها روح،وتكفلت هي وجدي بشؤوني رغم ضيق الحال.

لم أكن أرَ جدي إلا قليلًا فهو يعمل في بستان بعيد عن المنزل ليوفر المال لزوجته وحفيدته اليتيمة.

جدتي حرصت علي أكثر من حرصها على نفسها. اهتمت بتوفير طعامي وشرابي قبل أن تأكل لقمة. شجعتني على المواظبة على الدراسة فرحت لنجاحي وعاقبتني، كلما أثيرت ضدي شكوى.

أصرت على أن تغرس فيّ عزة النفس والخصال الحميدة وهي تذكرني كل يوم بأن اليتيم ولو كان فقيرًا عليه أن يعوض ما فقده من خلال امتناعه عن اشتهاء ما لدى سواه وتحليه بالصفات، والأخلاق الطيبة.

أردت إرضاء جدتي فكنت أمتنع عن قبول أي شيء من أحد على

سبيل الصدقة، وأضحيت مضرب المثل بالتعفف عن اشتهاء ما ليس لي.

أنا الوحيدة من بين أطفالالقرية،التي لم أحاول سرقة قطعة حلوى من صينية البقلاوة التي كان يسيل لها اللعاب في الأعراس، وتحملها إحدى النساء فوق رأسها وهي تطرد الأطفال من حول الصينية بعصا في يدها. أنا لم أشارك مرة في اقتناص الفرص لأخذ غنيمة من الحلوى حتى ولو نعتني بعض أصدقائي بالجبانة. وما شجعني على ذلك بكل صراحة أني كنت في النهاية أحصل على الحصة الأكبر دون أي عناء، حيث تتجه إلي المرأة حاملة الصينية عندما تراني وتعطيني قطعتين كبيرتين من البقلاوة شفقة منها على يتمي وإعجابًا بأخلاقي الحميدة.

أنا الفتاة المربأة أحسن تربية في بيت جدتي ارتكبت سرقتي الأولى والأخيرة في بيت خالتي.

لا زلت أذكر القصة بتفاصيلها.

كنا كعادتنا ننام عند خالتي لأن زوجها في خدمته العسكرية. تسللت إلى غرفة النوم مستفيدة من انشغال جدتي وخالتي في المطبخ لإعداد العشاء ووجود الأولاد في زيارة عند أحد أقرباء أبيهم.

دفعني فضولي لفتح الأدراج والنظر إلى محتوياتها، وقد وجدت في أحدها مبلغا من المال.

المبلغ كان بسيطا. حملته بين يدي عددته. أنا أتمنى أن أساعد جدتي يومًا بالمال، وأنتظر أن أكبر لأعمل وأعوضها عما تنفقه علي .

خالتي تملك الكثير فزوجها عسكري والدليل بيتهم الجميل وطعامهم

اللذيذ. هي لن تتنبه لخسارة هذا المبلغ التافه وإن نتنبه لذلك والأمر محتمل لأني أعرف حرصها، وولعها بحساب كل شيء فهي ستكتشف متأخرة ولن تضرها تلك الخسارة.

أزمعت أمري على أخذ المال وتقديمه لجدتي عند العودة للمنزل، وكانت خطتي تقضي بأن أخبرها أني وجدت المال في الطريق، وقد قال لي جدي يومًا أن المال الذي يجده طفل، ولا يعرف له صاحب يمكن للطفل أن يتملكه وأنا بصفتي مالكة لهذا المبلغ سأقدمه لجدتي كعون لها على أعباء تربيتي المضنية.

خبأت النقود في جيبي بسرعة، وأغلقت الأدراج بأحكام كما كانت وعدت إلى مكاني في غرفة الجلوس.

مر كل شيء على أفضل حال وودعنا خالتي في اليوم التالي وعدنا إلى المنزل.

في الطريق تركت لجدتي أن تسبقني قليلًا ومن ثم ناديتها لأخبرها أني عثرت على مبلغ من النقود وسلمتها إياه. وجدت المبلغ بعد عده بسيطًا لا يستحق السؤال عن صاحبه، وطلبت مني بأن أخبرها إن عرفت الشخص الذي أضاعه لنعيده إليه.

غمرني الفرح لأني تمكنت من أداء المهمة بنجاح.

في زيارتنا التالية لخالتي بعد أسبوع كان كل شيء عاديًا. رحبت بنا وقبلتني كالعادة ولكنها بعد قليل انتحت بجدتي جانبًا.

تكلمتا همسًا في الغرفة المجاورة لدقيقة من ثم علا صوت جدتي

تعاتب خالتي وتقول لها: «أمعقول أنتِ تتهمين ابنة أختك بالسرقة. أنتِ تشككين بتربيتي لها بهذه الوقاحة. تأكدي قبل أن تطلقي الاتهامات أم أنكِ تجرين على التعرض لتلك الطفلة فقط لأنها يتيمة لا سند لها. إياكِ أن تعودي لمثل ذلك وإلا فلن تطأ قدماي عتبة منزلك مجددا».

اقتربت من الباب على رؤوس الأصابع ملصقة أذني به فسمعت خالتي تقول «أنتِ تعلمين أني أحب ابنة أختي كثيرا ولأني أحبها أنا أخبركِ بما حصل. أنا افتقدت المبلغ في صباح اليوم التالي لمبيتكما عندي وأنتِ خير من يعلم أني لا أنسى كم معي من نقود ولا أين أضعها. ثم أن اكتشاف السرقة الآن لا بد أن يكون حافزًا لنا لنراقب تصرفات الصغيرة، فمن المؤكد أن هذه العادة السيئة لم تتمكن منها بعد لذا علينا التصرف قبل أن تفلت الأمور من أيدينا، وتحترف البنت السرقة وتجلب على نفسها وعلينا المشاكل».

تراجعت إلى الوراء، وأنا أسمع خطوات جدتي مسرعة نحو الباب فتحته بغضب وأمسكت بيدي وعادت بي إلى المنزل.

لم تقل جدتي كلمة طوال طريق العودة بيد أن دفاعها المستميت عني قبل قليل أعطاني ثقة قوية بأنها لم تشك بي ثقة سرعان ما انهارت، فور دخولنا المنزل حيث هوت على وجهي بصفعة شديدة مؤلمة وأمسكت بيدي، وضغطتها بقوة وهي تحذرني من تكرار السرقة مرة أخرى، وقد توعدتني بسوء العقاب إن فعلتها وأنذرتني بأن اتخاذي للسرقة طريقة لكسب المال، سيجلب علي لعنة وغضبًا من الله سيمنعان عني التوفيق،

وعن مالي البركة. وكررت علي بحدة ضرورة أن لا اشتهي أي شيء مع غيري حتى ولو كنت محرومة منه، فالرزق من الله ومن صبر فسيجني الأيام السعيدة ورغد العيش.

سرعة اكتشافها لي شكلت مفاجأة لعقلي الطفولي جعلتني أراها امرأة خارقة.

أبديت ندمي الصادق على فعلتي وأسفي وأقسمت بأن نيتي لم تكن سرقة المال بقدر ما كانت مساعدتها بهذا المبلغ الذي أوهمتها بأني عثرت عليه.

أعادت تكرار وعيدها لي إن عاودت مثل تلك الفعلة مجددًا ووعدتني بأنها لن تخبر خالتي بالحقيقة وأنها ستتدبر طريقة لحل الموضوع.

منذ ذلك اليوم أصبحت كلما نظرت عيني باشتهاء لشيء لا أملكه وضعت يدي على وجهي أتقي صفعة جدتي، وسمعت صوتها مدويًا في رأسي بنبرته الحادة نفسها يؤنبني بتلك الكلمات الغاضبة الحافلة بالوعيد.

خادم ابن الوزير

والده خادم عند الوزير. ما يميزه عن بقية خدم المنزل أنه أكثرهم تفانيًا في عمله وأفضلهم إلمامًا بما يرضي معاليه وما يغضبه.

نال في عمله شرف تهان مباشرة من الوزير وملاطفات ملأت قلوب زملائه عليه حقدًا، حقد تعاظم بعد أن تمكن من الحصول على وعد من معاليه بتوفير مصاريف منحة دراسية لابنه الذكي طوال سنوات تعليمه.

سراج بالفعل طفل متفتح الذهن بشكل أدهش من حوله، وأنعش حلم الأب أن يعوض حرمانه من التعليم بهذا الولد المتوقد الفكر.

واتت الظروف الحلم وحققته.

في أحد الأيام تعرض الوزير لمحاولة اغتيال من قبل والد زوجته لخلافات مالية، فتدخل خادمه الشجاع ورمى بنفسه على المجرم مخلصًا المسدس من بين يديه ومنجيًا الوزير من موت محقق.

في غمرة سعادة الوزير بالنجاة طلب من خادمه الوفي أن يخبره عن أمنية ليحققها له.

علم الخادم أن سيادته مستعدًا في هذه اللحظة أن يسمع منه طلبًا

مستحيلًا دون أن يغضب حتى ولو لم يرض بالتنفيذ.

تجرأ وطلب مبلغًا من المال على سبيل القرض ليدخل ابنه الموهوب المدرسة الأشهر في المدينة، والمعروفة بمدرسة الأغنياء.

وافق الوزير على الطلب بشرط أن يكون ابن خادمه خادمًا لابنه في المدرسة وأن يساعده إذا احتاج شيئًا وطمأن خادمه في النهاية بأنه لن يطالبه بالدين مطلقا إن سار وابنه كما يحب.

وقع الخادم على سندات بالمبلغ المقترض على سبيل الشكليات فحسب، وتلافيًا لأي إخلال بالعهد.

سعادة سراج لفت كل المدينة عندما علم بخبر انتقاله للمدرسة الحلم. أعيدت عليه تعليمات الطاعة وعدم الاعتراض على أوامر زميله في الصف مع ضرورة تذكره الدائم بأن في رقبته دين للوزير عليه أن يوفيه بحسن الولاء والطاعة.

دخل الصغير مدرسة لا تشبه عالمه. مقاعد وثيرة، أساتذة يلبسون البدلات، وأطفال بثياب زاهية مزركشة مكوية نظيفة بشكل مذهل.

كلما كبر سراج كلما زاد معرفة بعمق البون بينه وبين أقرانه في الصف. ملابسه ممزقة، أحذيته مهترئة، مقعده دائما في المؤخرة وصوته منخفضًا قلما يسمع في الصف وقلما يكترث الأساتذة بسماعه.

أبوه غير قادر على تأمين ثياب مثل ثياب زملائه فأجره الضئيل بالكاد يكفي ثمن فردة حذاء واحدة مماثلة لأحذيتهم.

علامات سراج المرتفعة وحدها كانت نقطة جذب الزملاء إليه.

صفقات سرية عقدت بينه وبينهم يحل بموجبها واجباتهم المدرسية، ويحصل على مبالغ مالية أو قطع من ثيابهم المستعملة.

سره الأمر وأمن مدخولا لا بأس به بالنسبة لسنه ولكن ابن معاليه لم يرتح لما يحصل فقرر استخدام سلطاته وإيقاف كل تلك الاتفاقات التي بدأت تتحول إلى صداقات مقلقة.

أراد استخلاص سراج لنفسه فسراج خادمه لا بد أن يساعده هو فقط في فروضه المدرسية.

توسعت مطالب ابن الوزير المدلل فأعلن على خادمه أن عليه أن يحل أوراق الامتحان له أيضًا. وعملت الواسطة عملها فكان مقعد سراج في أوقات الاختبار دائما بجانب ابن الوزير.

يبدأ الامتحان، يكتب سراج الإجابات لسيده من ثم يعمل على حل امتحانه فيما تبقى من وقت.

لم تمض أشهر حتى ما عادت علامات سراج المرتفعة تروق ابن الوزير فليس منطقيا أن يكون الخادم أكثر ذكاءً من المخدوم فكان اتفاق جديد على أن يستمر سراج بالتقاني في الدراسة ولكن مع بعض الإجابات الخاطئة أثناء الاختبار.

سراج أصبح يتناسى جزءً من هذا السؤال ويترك حل ذاك وعلاماته أصبحت في تراجع مقابل تحليق لعلامات مخدومه.

تخرج سراج وابن الوزير من المدرسة، ومن قسم إدارة الأعمال في جامعة مرموقة وعمل سراج في شركة أنشأها الوزير لابنه كمساعد

خاص له.

اعتاد سراج أن يكون في الظل. أن يعمل بجد لتكون التهنئة لسيده. ألف هذا الوضع ولم يعد يزعجه إلا فيما ندر.

أخبر ابن الوزير سراجًا بأنه يرغب في أن يخلد ذكره بين فئة الموهوبين وليس خيرًا من سراج في أداء هذه المهمة.

سراج ممتاز باللغة العربية والنصوص التي كان يكتبها لابن معاليه، كانت مثار إعجاب الأساتذة.

فهم سراج المقصود من التلميح وعمل على كتابة رواية.

نسي في أوقات الكتابة أن من ستنسب إليه الرواية هو شخص آخر.

أبدع قلمه وخرجت من بين يديه الرواية آية أدبية رفيعة. هو نفسه ذهل عندما قرأها مكتملة.

ساعات كان يقضيها محتضنا المخطوط سائرًا به في أرجاء الغرف مقلبًا صفحاته برفق مسلما على الشخصيات محاورًا إياها في أحاديث عميقة ممتدة.

أخيرا أزفت ساعة تسليم المخطوط.امتدت يده المرتعشة بالأوراق إلى ابن الوزير. أفلتت منه دمعة قهر، وهو يرى حقيقة أن طفله ينسب لأب غيره.

ذاع صيت الرواية. ابن الوزير كان يعتذر بسبب المشاغل عن اللقاءات الأدبية ومناقشات روايته، ويستعيض عن ذلك برسائل مكتوبة ومقابلات صحفية معروفة الأسئلة مسبقا.

اختيرت الرواية كأفضل رواية في البلاد، ودعي كاتبها لتكريمه من قبل أفضل الكتاب.

دعا ابن الوزير أصدقاءه لمشاركته حضور الحفل ولم يدع سراج. هنا طفح الكيل وفاض. سيثأر سراج لكرامته وليكن ما يكون.

فليدخل أبوه السجن بسبب الديون، ولتلفق له تهمة اختلاس يرافق أباه من خلالها إلى الزنزانة، وليذهبوا أبعد من ذلك ويفبركوا له اتهام سياسي يوصله إلى حبل المشنقة.

ليفعلوا ما يشاءون لكنه سينتقم.

حمل مسودة مخطوطة الكتاب التي لم يتخل عنها في حقيبة وانطلق في يوم الحفل ليريها للجميع كدليل قاطع على هوية كاتب الرواية.

إنه يدفع بقبضته الحارس الذي أراد منعه من الدخول لأنه لا يحمل بطاقة دعوة. يدخل متجاهلا نظرات الاستهجان.

يصعد المنصة. يخطف الميكروفون من يد ابن الوزير الذي يلقي خطبة سراج كاتبها.

يصيح في الحشد بأنه هو كاتب الرواية.

يشير ابن الوزير إلى مرافقيه للانقضاض عليه لكن القبضات تتراخى فور صعود الكاتب الكبير المنصة لاستطلاع ما يجري. يسلم سراج المخطوط للكاتب. هذا خطه، إشاراته لحذف جملة أو إضافة أخرى.

يتكلم ويستفيض عن كل ما قام به لمصلحة الوزير وابنه.

يتحدث عن ليالٍ لم يغمض له جفن خلالها، وهو يفكر بأحداث

الرواية وكيفية تنسيق جملها.

يطأطأ ابن الوزير رأسه. تتلاشى عنجهية أبيه. نظرات ازدراء وإهانات تمزقهما وتأخذ لسراج بثأره.

تمتد قامته ويصبح الوزير وأعوانه أقزامًا يركلهم بقدميه.

يحمله الجمهور ويعلو التصفيق.

في أوج التصفيق يناديه صوت يعرفه جيدًا: «سراج ماذا تفعل هنا؟ أنا آسف لأنك لم تتمكن من الدخول لحضور التكريم لكني سأريك الصور. لقد كان التكريم رائعًا وأنا أعتذر عن فظاظة الحارس معك». يشير إلى من حوله ليعرفهم بسراج خادمه وأحد مساعديه الشخصيين في الشركة لافتًا نظرهم لخدمات والده الجليلة لمعاليه.

يصافح سراج بعض الأيدي التي امتدت، ويتفرق الجمع تاركين إياه واقفًا على باب قاعة التكريم الخالية.

ليلة حوار لبناني

المطعم محجوز بالكامل. إنها المرة الأولى التي يشهد فيها مطعمه مثل هذا الإقبال منذ سنوات.

الحياة تدب في أوصال هذا الحي البيروتي بعد أن هجرتها بسبب خضات أمنية وسياسية تلاحقت على البلد، فجعلت مطاعمها ومقاهيها المشهورة خاوية على عروشها.

ها هو المطعم العريق ينتصر على شبح الإقفال النهائي الذي كان قاب قوسين أو أدنى من أبوابه، ويعود لسابق عهده. العمال منهمكون في تحضير الطاولات وإعداد الطعام. صاحب المطعم يشرف على كل شيء بنفسه. يوزع الابتسامات على الجميع. يشجع هذا ويثني على عمل ذاك ويطلب من ثالث إزاحة طاولة أو تنظيف كرسي.

كل دقيقة تنطلق نغمة الخبر العاجل على هاتفه فلا يكترث بها. إنها أخبار السجال الحاد الذي نشب بين زعيمي الحزبين السياسيين المتنافسين دائمًا، استهلكا فيه كل قواميس القدح والذم والتخوين.

يحل المساء ويمتلئ المطعم عن آخره بالرواد. الآن أصبح بإمكان

صاحب المطعم أن يعاود التخطيط لسهرات فنية وترفيهية تعيد مطعمه لخارطة الوجهات المحببة في المدينة.

على إحدى الطاولات يجلس أحد مناصري الحزبين الغريمين مع شابة يتناولان العشاء بانسجام.

على الطاولة المقابلة يجلس شابين من الحزب الآخر. ينظر الشابان للجالسين على الطاولة المقابلة، ويطلق أحدهما صافرة استهجان.

يتحفز المحازب الذي في مواجهتهما يطلب منهما التزام اللياقة وإلا استخدم القوة. يتدخل أشخاص آخرون. وتتكهرب الأجواء تلاسن يتطور إلى عراك بالأيدي، فطيران للكراسي والطاولات وأواني الطعام في كل الاتجاهات.

دقائق وكانت مئات الدراجات النارية، تدخل الحي من كل مكان. مسلحون ملثمون احتلوا الشوارع.

متاريس نصبت وكأنها لا تزال في أماكنها منذ أيام الحرب الأهلية.

يشتعل الحي والأحياء المجاورة بالاشتباكات. يصمت ضجيج المطاعم والمقاهي ويفر روادها. يفرك قناص عينيه طاردًا بقايا نعاس، ويتخذ موقعه إيذانا ببداية موسم حصاد الرؤوس. وترتج المباني لدوي القذائف التي حولت ليل المدينة إلى نهار.

ساد الذعر بين سكان كانوا منذ قليل آمنين. وحدهم الأطفال لم يخافوا فكانت تكفيهم تطمينات الآباء والأمهات أن هذا الرصاص، هو رصاص ابتهاج في زفاف حتى تهدأ نفوسهم. هم يعرفون ما يفعلون في

هذه اللعبة فينبطحون أرضًا مبتعدين عن النوافذ منتظرين حتى يتوقف إطلاق النار.

لم يجرؤ أحد على الاقتراب من شرفة، وأمسك كل واحد بهاتفه يتقصى الأخبار من مواقع التواصل الاجتماعي ليجد صفحاتها تحولت إلى مكاتب إعلام حربي.

مع خيوط شمس الفجر الأولى تصل المتحاربين أوامر قياداتهم السياسية، فيسود الهدوء دفعة واحدة. تنسحب الدراجات النارية ويختفي الملثمون. يغيب السلاح وتزال المتاريس. ويتسلل القناص إلى سريره ليكمل النوم.

يخرج الناس من بيوتهم متفقدين أضرار ليلة الأمس.

عشرات السيارات تحولت لركام أسود. زجاج المحلات التجارية، والمقاهي تكسر بمعظمه.

الدوريات العسكرية تجوب الأزقة والشوارع، وعمال البلدية يعملون على تنظيف الحطام من الطرقات.

صاحب المطعم الشاهد على شرارة المعركة الأولى يقف واجمًا يراقب عماله يزيلون قطع أثاث مفككة لما كان بالأمس مطعمًا مليئًا بالرواد. جميعهم يلفهم الحزن على زميلهم الذي سقط قتيلًا بإحدى الرصاصات العشوائية. يتحدثون عن قدره المشؤوم هو الذي فر من الموت في بلاده ليجده مختبئا بانتظاره في بيروت.

لم يسقط ضحايا عدا عامل المطعم. حصص المتقاتلين منآثار المعارك

كانت بعض الجرحى بإصابات مختلفة الدرجات.

لم يسلم في المطعم المحطم إلا جهاز تلفاز يبث صورا لاجتماع طارئ بين رئيسي الحزبين الذي كان الاشتباك بين أنصارهما. لقد طويا صفحة يوم أمس الحافل بالردود والردود المضادة وجلسا متجاورين لبحث الوضع الخطير والتهديد المباشر لسلم الأهلي.

أعلنا المصالحة ووقعاها بمصافحة حارة وثلاث قبل على الخدين وأكدا رفع الغطاء عن كل المتورطين في إشكال الأمس، وترك الحرية كاملة للقوى الأمنية للضرب بيد من حديد.

تعهدت الـوزارات المعنية بإجراء مسح لـلأضرار تمهيدًا لدفع التعويضات المناسبة.

يطفئ صاحب المطعم التلفاز ويتابع مع عماله لملمة ما تحطم. يخبرهم أنهم من اليوم في إجازة بانتظار تعويض ربما سيأتي يومًا ما.

إصابة في القلب عن طريق الخطأ

كالعادة كلمة مني أو تصرف في أحد المواقف فنقاش حاد فمشادة فإطلاق رشقات رشاشة من اللوم عليّ وعلى قسوة الحياة، ومن ثم تغادرني إلى غرفتها مقفلة الباب ومنهية الحديث.

لا أدري إن كانت هي تعاني من حساسية مفرطة أم أنا أقل مبالاة بمشاعرها مما يجب فكل كلمة أو فعل مني يجرحها ويثيرها بشدة.

هذه المرة الخلاف كان حول دعوة زفاف. فقد وصلتنا منذ أيام من إحدى صديقات العائلة دعوة لحضور زفافها. وبداية الخلاف كانت حول تعليقي على هذه الدعوة أمام مجموعة من الأقارب كانت في زيارة لنا حيث قلت بأنني تلقيت دعوة لحضور حفل زواج تلك الشابة وأني ممتنة لها لأنها دعتني.

أنا لم أجد في كلامي هذا أي شيء قد يثير أحدا ولكن جنى ابنتي أمتعضت من جملتي، ولم تعلق.

عند ذهاب الضيوف بادرتني قائلة: «ألم يكن الأجدر بك أن تحترمي كوني فردًا من العائلة وتتكلمي بصيغة الجمع عن الدعوة؟».

أربكني سؤالها. فعلا لماذا لم أقل أن الدعوة وجهت لنا كعائلة لماذا تكلمت بصيغة المفرد. لم أرد التفكير في الأمر وحاولت الدفاع عن نفسي، فأجبتها بأني قلت ذلك لأني أعلم بأنكِ لن تحضري الزفاف لعاداتك في مقاطعة الأعراس، وسخريتكِ الدائمة من الطريقة اللبنانية في الزفة وتوابعها.

لم تقتنع بكلامي وطلبت مني بحدة أن أتوقف عن اتخاذ القرارات عنها، وأضافت بأن مسألة حضورها من عدمه تقررها هي بمحض إرادتها وليست مثار حديثنا الآن. فهي إن حضرت أم لم تحضر فموضوع كونها مدعوة لن يتغير هذا ما يجب أن أظهره أمام الناس على سبيل الاحترام لكيانها فالدعوة وصلتنا باسم العائلة، وأخوها، وأختها متزوجان، وبالتالي فحسب العرف أنا، وهي المقصودتين بكلمة العائلة.

ثم أطلقت في وجهي تساؤلًا قاسيًا: ترى لو كانت أختها هي التي بدلًا عنها في المنزل هل كنت سأقول دعوتي أم كنت سأقول دعوتنا؟ أما كنت سأحاول إقناعها بالذهاب للزفاف بشتى الطرق؟

حاولت التهرب من سؤالها. اتهمها بأنها دائمًا تفتعل المشاكل، وبأنها تريدني أن أكلمها بالشوكة والسكين كما يقال. فقالت لي بأن المسألة مسألة مبدأ فمثل هذه الأمور البسيطة لو تم تحليلها بقليل من الذكاء لفهم منها الكثير.

وبين أخذ ورد كبر الخلاف وتطرقنا لمسائل أخرى كل منا يحاول إثبات صوابيه آرائه. وغادرت إلى غرفتها وأنا أعلم أن في قلبها جرح

جديد يضاف إلى الجروح المتراكمة على مدى أيام وخيبات.

آه من هذه الحياة الظالمة. لقد سرقت من تلك الشابة الجميلة المثقفة القدرة على الإبصار فهي كفيفة منذ الولادة.

مؤلم جدًا أن يعيش شخص وهو غير قادر على رؤية أي شيء فيمنعه ذلك عن الاستمتاع بالحياة، ويتركه وأهله نهبا لألم لا ينتهي.

جنى في ريعان الشباب. لكم تمنيت أن تسير أمامي في كل المناسبات، أن أباهي بطلتها وجمالها، وأن أرقص في زفافها وأملأ الدنيا زغاريد.

كم رغبت بأن تكون بجانبي في كل مكان أذهب إليه. أن تساعدني في اقتناء أغراض المنزل، أن تذهب لشراء بعض حاجياتي، أن أختار ملابسي بحسب ذوقها، وتنتقي ألوان ثيابها وتنسقها على هواها.

تمنيت وتمنيت ولكن هيهاتّ

منذ طفولة جنى وأنا كلما كنت معها في مكان سمعت ما يقال وما لا يقال.

الأقارب يدعونني للاهتمام بها وعدم إهمالها محتسبة الأجر عند الله وكأنهم أكثر حنوا عليها مني! نظرات الشفقة تلاحقني وتلاحقها في كل مكان، تحاصرني وتذكرني بمصيبتي ومصيبتها في كل لحظة.

كلمات جارحة تلقيتها بصبر وسمعتها هي منذ أن كانت صغيرة.

لا يمكنني أن أنسى تلك القريبة التي رأتني، وأنا أمسك بيد الصغيرة في أحد الأعراس فقالت لإحدى صديقاتها همسا: «انظري إلى هذه المرأة وابنتها العمياء. برغم أنها تبدو بريئة طاهرة لكن الله وحده يعلم حجم

الخطايا التي ارتكبتها ليعاقبها بهذا الشكل فتلد فتاة مطفأة العينين ستبقى عالة على أسرتها طوال عمرها. لا علم ولا زواج ولا عمل نافع».

ابتلعت يومها غصتي التي تتجدد كلما تذكرت تلك الحادثة. وابتلعت معها محيطًا من دموع مالحة.

عدت بالطفلة إلى المنزل وهناك انهارت سدود الصمود أمام محيطات الدموعالمكبوتة فأغرقتني لأيام.

ترددت مثل تلك الكلمات بالتلميح تارة، وبالتصريح أخرى وبنظرات أبلغ من كل الكلام أطوارًا ثالثة.

قررت أن أجنب الطفلة مثل تلك المواقف. توقفت عن اصطحابها معي إلى أي مكان ما عدا زيارة الأقارب المقربين.

كانت صغيرة فلم تسألني لماذا أخذت أختها وأخيها إلى الأعراس معي ولم آخذها.

كانت لا تزال بريئة فلم تفهم سبب ذهاب أخويها إلى الدكان دائمًا معي وعدم عرض ذلك عليها.

أو لعلي ظننت ذلك.

ذكرتني بتلك الأمور بعد أن كبرت وأصبحت تسأل وتعاتب.

تلك الطفلة التي كنت أظنها غير واعية بشيء مما يدور حولها كانت واعية أكثر مما توقعت.

الآن تخبرني بأني كسرتها بتصرفاتي تلك، وبأنها كانت بعد مغادرتنا تحاول فهم سبب ما كنت أقوم به. تلك الصغيرة لامت نفسها معتقدة

بأنها ارتكبت خطأً ما كنت أعاقبها عليه. تلك البريئة عاشت مع ذنب، لم تقترفه لسنوات وسنوات دون أن يشعر بها أحد.

الأسرة ألفت غياب الابنة الكفيفة عن المناسبات والنزهات العائلية خاصة، وأنها كانت في مدرسة داخلية مخصصة للمكفوفين أمثالها، فلم تكن تقيم بيننا إلا يومًا واحدًا في الأسبوع وفي الإجازات الصيفية.

كلنا نحبها. ولعلي أفرطت في حبها ولكن على طريقتي. ظننت بأني سأسعدها بطعام لذيذ وألعاب كثيرة وأطنان من القبل.

اعتقدت بأن من هم مثلها يكفيهم ذلك من الناس، وبأنه ليس من الضروري أن يخرجوا إلى أي مكان ما عدا بعض النزهات التي يقومون بها مع من هم معوقين مثلهم لأماكن معينة على سبيل الرحلات المدرسية. ودون أن أدري ربيت أخاها وأختها على نفس الاعتقاد ورسخت فيهما تلك الأفكار.

اعتبرنا جنى فتاة مسكينة بحاجة لتنظيم حياتها بشكل يساعدها على العيش دون منغصات خارجية.

والدها الذي كان يجن جنونه إن رفضت أختها أن تجالس ضيوفًا كان لا يبالي إن هي، فعلت نفس الأمر لا بل كان يدعوها برقة لعدم البقاء مع الضيوف معللًا ذلك بحرصه على راحتها وحذا حذوه عن طيب نية شقيقها الأكبر بعد وفاة الأب وجنى لا تزال في عامها العاشر.

أنا كنت أصر على أن لا تذهب مع أخويها أو أبناء عمها وأخوالها في نزهاتهم في شوارع البلدة لكي لا يتعرضوا لأي موقف قد يزعجهم

ويحزنها.

مرت الطفولة وكبرت جنى وأخذت تسير خطوات ثابتة في طريق الشباب.

مـا صمتت عنه في أوقـات طفولتها تكلمت بشأنه في شبابها،وإجراءاتالحماية بعزلها عن مصادر الإزعاج أتت بمفعول عكسي.

عندما انتقلت جنى إلى ثانوية للطلاب المبصرين لأن مدرسة المعوقين لا تؤمن التعليم في مبناها بعد إنهاء الشهدة المتوسطة بدأت تظهر عوارض ضعف اجتماعي خطير في شخصيتها، وبدأت تكتشف مجتمعا لم تتعامل معه من قبل. مجتمع غريب. يفوقها زملاءها باستقلالهم وحريتهم في الحركة حرية افتقدتها في مكان جديد لا تعرفه.

شعرت بالفارق الكبير بينها وبينهم، فعاشت عزلة واكتئاب شديدين لم أستطع التصرف حيالهما بأي شيء نافع.

كنت أرقبها حزينة طوال الوقت شاردة. قل كلامها وأصبحت غامضة تجلس في غرفتها لساعات دون أن تفصح عما بها.

تفوقها الأكاديمي جعل الجميع يتحدثون عنها ويشيدون بها وجعل زملاءها يحاولون الاقتراب منها لكنها ظلت في قوقعة غير مرئية، ولم تستطع تكوين صداقة مع أحد.

منذ فترة بسيطة حدثتني جنى عن تلك المرحلة. حدثتني عن هول صدمتها بالهوة الشاسعة بينحياتها وبين حياة الناس من حولها.

حدثتني عن الدونية التي عاملت نفسها على أساسها، وكيف رأت

أقرانها متفوقين عليها في كل شيء.

تكلمت وأطالت عن شعورها بالتعاسة، وهي ترى بأنها بحاجة لمن يمسك يدها لتنتقل من مكان إلى آخر في محيط لا تعرفه وبين أشخاص لم تألف الاختلاط بهم.

تكلمت وتكلمت ولامت العائلة على كل ما حل بها.

قالت بأن كل أمراضها الاجتماعية واكتئابها نحن سببه. نحن الذين لم نفرضها على الناس بل خفنا من كلماتهم ونظراتهم. نحن الذين حمينا أنفسنا متوهمين بأننا نحميها هي.

ربما كانت محقة. أو لكنها صريحة مع نفسي على الأقل هي فعلًا محقة.

إذ كيف يمكنها أن تواجه نقصها إن كنا نحن لم نعودها على ذلك وهي صغيرة؟ لا بل عاقبناها على هذا النقص بحرمانها من الكثير من مباهج الطفولة.

كيف لها أن تشعر بدنيتها مع أقرانها وقد رسخنا فيها الدونية بإبعادها عن الناس وبمواجهة كل تعرضهم لنا بالصمت وكأننا نعترف لهم بصحة كل اتهاماتهم وتصرفاتهم تجاهها.

مرت المرحلة الثانوية وكانت الجامعة. تحسنت علاقاتها الاجتماعية قليلًا إنما ظلت عقدة نقصها تسيطر على حياتها وتسيّر معظم تصرفاتها.

وما يزيد المشكلة عمقًا أنها فتاة تجيد تعقيد حياتها بشكل عجيب. هي تحمل هم كل شيء. تحلل كل ما حولها وتشك حتى في أقرب الناس إليها. متوترة دائمًا وتغضب بسرعة غضب ورثت أصله عن أبيها بالجينات

فهي برميل بارود يشتعل لأقل سبب.

جنى هشة متصدعة من الداخل برغم ظهورها بشخصية قوية صلبة وبطبع قاس ومشاعر باردة.

سلامها جليدي. ليس في كلماتها مكان لعبارات الأشواق والحب. تفضل أن تترك مشاعرها في قلبها فهي مع أكثر الناس الذين تحبهم متحفظة لا تبدي إشارة لمودة إلا فيما ندر وكأن شكها بالناس وشعورها بالنقص تركا حاجزًا بينها وبينهم فتخشى أن تبدي حبا لأحد أو صداقة حميمة تبنيها بصدق، في النهاية أن الشخص الذي يقابلها يشفق عليها أو إنه لا يأبه بصداقتها وهي تلك العمياء المليئة بالعقد.

لا شك أن تربيتنا الخاطئة لجنى تركت تأثيرات على حياتها قد لا تشفى منها أبدًا ولكن يا ليت جنى تعلم بالتشوه الذي تركه الناس بظلمهم وقسوتهم فينا.

يا ليتها تعلم أني لم أقم بشيء مما قمت به في حقها لأني أكرهها بل أني كنت أحاول أن أساعدها، وأساعد نفسي على تخطي المواقف الصعبة وأنا ضعيفة غير قادرة على المواجهة.

يا ليتها تدري بأني ربيتها بموروثات قروية حمقاء وغياب أي مرشد يدلني على كيفية التنشئة الصحيحة لأمثالها.

ليتني أتمكن من أن أشرح لها بأني أنا ذاتي كنت بحاجة لمعالجة نفسية لأتمكن من تقبل أني رزقت بابنة كفيفة.

هي لا تعرف بأني أتمزق حزنا حتى هذه اللحظة كلما استيقظت في ليلة

مظلمة، والتيار الكهربائي مقطوع فأتذكر عينيها التي يحاصرها الظلام وحجم معاناتها، وأنا التي تسود الدنيا في وجهي، ولا أقوى على فعل شيء في عتمة مطبقة لا تدوم سوى نصف دقيقة للعثور على مصباح قريب.

لعلها محقة بأني أتجنب السير معها في الشوارع، وأختلق أعذارًا لكي لا نسير سويًا إلى مكان ما وإن اضطررت للذهاب معها كنت مرتبكة ارتباكا أداريه عن كل الناس إلا عني وعنها.

مرات ومرات طلبت مني، وهي في حالة ملل وأصدقاءها بعيدون عنها أن ننزل قليلًا لنسير في نزهة إلى أي مكان فأرفض بلباقة، ثم أنسى أني رفضت مرافقتها بعد نصف ساعة فأذهب وحيدة لشراء شيء أو القيام بعمل ما، ثم أعود لأراها في نوبة غضب عارم أو حزن شديد أدعي بأني لا أعرف سببها.

أنا أكره نفسي كلما رأيتها تسير مع صديقاتها في أزقة وشوارع وأراهن غير خجلات من وجودهن معها، وهن يقطعن بها الطرقات الضيقة ويتمازحن ويتحدثن في كل شيء وأناأمها غير قادرة على ذلك.

أنا كلما سرت معها في مكان أشعر بأن كل العيون تنظر إلي وإليها بشفقة أو ازدراء.

أنا كلما فكرت بأن أرافقها في مناسبة كزفاف تتملكني حسرة، وأنا أعلم بأنها لن تتمكن من أن ترقص وتشعل الحفل كالأخريات، وبأنها ستحتاج ليد تمسك بها لتذهب وتأخذ الصورة مع العروسين لن تستطيع أن تستمتع بالكثير عن مجريات الزفاف، وستواجه كلمات وأفعال قد

تؤذيها كأن يمر أحد دون أن يسلم عليها أو أن يكلمها أحدهم، وكأنه يكلم طفلة ذات خمس سنوات وليس ابنة عشرين عامًاقد تفوقه علمًا وثقافة بمراحل.

أنا أتمنى أن تكون ابنتي بصيرة نسير متجاورتين لا حاجة لأن أمسك يدها، وهذا التمني لا زال في داخلي يتحكم بلا وعي. أحاول أن أتغير ولكني حتى الآن لا أستطيع.

أخطائي غير المتعمدة دمرت ابنتي ودمرت علاقتي بها فنحن في شجار لا ينتهي. ابنتي وهي على وشك التخرج من الجامعة أراها تخشى التخرج وما سيكون بعده من بطالة مرجحة وهي التي ابتليت إضافة إلى عقدها، وفقد بصرها بفائض كرامة فلا تستجدي وظيفة ولا تسعى خلف واسطة قد يحققها لها استغلال وضعها.

أراها تذوب أمام عيني وتنحل يوما بعد يوم وأنا ضعيفة غير قادرة على فعل شيء لها. هي ظل إنسان يحيا في هذه الدنيا ينو بحمل جبال من الهموم ما أعرفه وأتفهمه منها أقل بكثير مما لا أعرفه.وهي بطبيعتها غامضة ناقمة على كل شيء.

أنا أخاف عليها من القادم وقد خبرت شدة طبعها وغضبها السريع. ثورتها على كل شيء أنا نفسي لا أتمكن أحيانًا من فهمها.

وما يرهقني وصولا للانهيار أننا غير قادرتين على تقبل أنها فاقدة للبصر حتى الآن أنا بمحاولتي الابتعاد عن أي شيء يظهر نقصها وهي من خلال ارتباكها وحزنها عند أي موقف يبين اختلافها والمواقف كثيرة

فأراها تتهرب من مشوار مع أصدقائها بأعذار واهية، وتقلع عن الحديث في المناسبات الاجتماعية. وقد سألتها مرة عن ذلك فقالت لي بأن فكرة عدم تمكنها من معرفة أكان الشخص الذي في مواجهتها ينظر إليها أم لا، وعدم استطاعتها رصد حركاته أثناء حديثها معه يجعلانها دون وعي تفضل الصمت.

أتمنى الآن أن أدخل عليها فأضمها وأطلق دمعي مدرارًا.. أريد أن أقول لها بأني أحبها حبًا حقيقيًا، لم أستطع أن أعبر عنه كما ينبغي وقد علمت ذلك متأخرة.

أريد أن أطلب مساعدتها لنتخلص سوية من عقدنا ونواجه الحياة بثبات لأننا لم نخطئ، ولأن لديها الكثير لتقدمه لمن حولها ولتستحق من أجله احترامهمإذا منحت الحياة فرصة.

لكم أشتهي أن أطلب منها أن تسامحني على كل الجراح التي قد أكون سببتها لها عن جهل، ولا وعي بحقيقة مشاعرها وحجم معاناتها ونعتتني لأجلها بالأنانية.

أريد منها أن تقف بجانبي لأقف بجانبها لنواجه الحياة كأم وابنتها متفاهمتين ساخرتين بالعيون المشفقة.

أريدها أن تكون ناجحة أن تتقبل حقيقة مصابها وتتعامل معه بلا مبالاة لتكمل الحياة كما ينبغي. أريدها أن تقف على قدميها كلما أبكتها عيناها العاجزتان في مرة احتاجت أن تسير بضوئهما المطفي فتعثرت في موقف أو أخطأت التقدير في آخر.

فهل سأتمكن يومًا من أن أعوضها عن بصرها المفقود؟ هل سأتمكن من أن أوصل لها مدى حبي بالأفعال لا بالأقوال كما تطالبني دائمًا؟ هل سأتغير لأجلها؟ أنا لا أستطيع إعادة عقارب الساعة إلى الوراء لأصحح أخطائي الماضية فهل سأمحو بأفعال صحيحة كل تأثيرات تلك الأخطاء يومًا أم سأزيد الأمر تعقيدًا وأشهد على موتها البطيء وانطفاء شعلة شبابها لألملمها بعد فوات الأوان رمادًا لا جمر تحته؟

لا للموت بالمجان

الجميع لقبوه بالجبان. إهاناتهم تلاحقه أينما اتجه فهو الوحيد في كل القرية الذي جاهر بأنه لن يشارك في المظاهرات الصاخبة التي تقام ضد الاحتلالالإسرائيلي، وبأن مثل تلك المظاهرات لا طائل منها فهي بالنسبة له، وإن احتفظ بذلك لنفسه أداة لزيادة أرصدة قادة انتهازيين في البنوك الأجنبية. فكُلما زاد الشعب حماسًا زادت شلالات الدم المسفوك جريانًا وقوي مفعول الرثائيات، والخطابات الصاخبة في امتصاص المال من جيوب المتبرعين ليستقر نصفه على الأقل آمنا في حساب الزعيم وأعوانه في المصارف السويسرية.

لم يكن يجد ترحيبًا في أي مكان سوى على حواجز قوات الاحتلال التي كانت حواجز إذلال لجميع سكان قريته ما عداه. فكل ما كان يحصل عند الحاجز أن يرحب به الجنود وينادونه بالـ«شاطر» ويبتسمون في وجهه بسخرية، ويفتحون له الطريق ليمر بلا أي صنف من صنوف العرقلة أو التفتيش.

وكان يوم مظاهرة كبرى دعا لها أكبر المتحدثين باسم الممانعة في القرية،

وقد أعدوا لها العدة بخطابات مدوية وشعارات مزلزلة.

تقاطر مد بشري من شباب قريته وشباتهاباتجاه حاجز القوات المعادية وأصبحوا على تماس مباشر مع الجنود.

وتساقطت الحجارة بعشوائية من أيدٍمتحمسة، لكنها لم تستطع حتى كسر زجاج دبابة.

طارت في مقابل كل حجر عشر رصاصات تصطاد الناس اصطيادًا فتصيب من تصيب، وتترك الباقين طيور مذعورة كسرت أجنحتها زاحفة باحثة عن أي ملجأ.

ومع أول رشاشات الرصاص اختفى منظمو المظاهرة الأشاوس بسحر ساحر وكأن الأرض ابتلعتهم إلى جوفها.

ازداد عدد الصحفيين والمصورين الذين يحاولون توثيق المجازر وعدد الضحايا.

على إثر المظاهرة الكبرى عاد من عاد من الشباب مدججين بصور الشهداء والجرحى. الجميع مروا ببيته مطلقين كل الشتائم التي يعرفونها ولا يعرفونها في مواجهته.

لاحقتهم كتيبة من الجنود المحتلين إلى بيوتهم معتقلة منهم من أرادت ومروعة أطفالهم.

الجنود لم يمروا ببيته مطلقًا.

كان لا بد بعد جرعات الذل التي تعرض لها أهل القرية في تلك الليلة الحالكة أن ينتقموا لكرامتهم من أحدهم ولا شك بأن جبانهم، الذي لم

يخرج في المظاهرة هو الأكثر استحقاقًا للاحتراق بنيران غضبتهم.

انطلقوا هائجين إلى منزله. نادوا عليه فلم يجبهم. حطموا أبواب المنزل ودخلوه فما عثروا إلا على أثاثه البسيط.

في الصباح كان واقفًا على الحاجز يحمل حقيبة كبيرة. سأله الجندي إن كان قد علم بعدد القتلى من أهل قريته في مواجهات الأمس، فلم يجبه إنما فتح حقيبته بهدوء استل منها رشاشًا وفجر به رؤوس الجنود قبل أن يتمكنوا من استيعاب الصدمة.

أحيط به من كل مكان فانفجر تحقيبته لهيبا أحرق كل ما حوله.

في تلك الأثناء حطت ورقة صغيرة أتى بها الهواء مع دخان النار المشتعلة في يد صبي في القرية حملها وقرأ بأعلى صوته: «هكذا يكون الموت شهادة وانتصار. بعد الآن لا للموت بالمجان».

مـــازوشـــية

من الآن أصبحت حرة. صدر حكم الطلاق بعد تأجيلات وإجراءات ما ظنتها ستنتهي.

ستسدل من هذه اللحظة الستار على ذاك الزواج الذي لم يأتها إلا بالأوجاع والإهانة.

سنوات قضتها مع طلال صابرة تنتظر أن يتغير لكنه لم يتغير.

هي أحبته إلى حد الجنون، ولا بد أن تعترف بأنها لا تزال حتى الآن تحبه.

عشقت فيه سطوة رجولته التي افتقدتها في أب مسير من قبل أم آمرة ناهية، كلمتها لا مناقشة فيها ولا كلمة بعدها إلا كلمة الموافقة.

هي لا تزال تذكر كم كانت تحاول الاحتجاج عند أبيها، لأن أمها رفضت لها طلبا ما فينظر إليها نظرة عجز احتقرته من أجلها ولا يفعل أي شيء.

كانت تبحث عن رجل يعوض غياب الأب وكان طلال ذاك الرجل. ملامح صارمة ووجه لا يبتسم إلا لاماما.

حضور طاغ ومواقف ثابتة لا تلين. معه شعرت بأمان غريب وأحست تجاهه بجاذبية لذيذة غامرة.

لم تخفَ عنه افتتانها بشدته وكل ملامح الرجولة فيه. عضلاته القوية كانت بالنسبة لها السلام الذي ستحيا في كنفه كل ما تبقى من العمر.

هو موظف بسيط ولكنه فارس أحلامها والمال لا يصنع موقفًا ولا يذل رجلًا.

تزوجا وكانت جاريته المطيعة لا تعصي أمرًا ولا تدخر جهدًا لنيل الرضا ولكن إرضاء مثل هذا الوسيم المعتد بنفسه صعب.

صفعته الأولى على وجهها كانت في أسبوع زواجهما الأول بعد أن طلبت منه أن يخرجا للعشاء في يوم كان جو مزاجه مكفهرًا. رفض الخروج فناقشته، ورفعت صوتها بأن هذا الأسبوع هو أسبوع عسل وسهرات وليس أسبوع بقاء في المنزل وسجن بين الجدران.

تلقت الصفعة فلم تتألم بل شعرت بسعادة لم تفهم لها سببًا، وبدل أن تحتج وتكرهه أحبته أكثر.

وأخذت يد الزوج الحنون تصبح أكثر انطلاقا، وتوالت الصفعات واللكمات، وتكاثرت مع الأيام بسبب ودون سبب.

حاولت أن تتقي شر عنفه بمعرفة الأوقات المناسبة للحديث معه، ولكنه رجل لا تخضع تقلباته الجوية لأي منطق.

إن كان يوم عمله سيئا افتعل شجارًا ليجعل ليلتها أسوأ.

إن صادف وطهت له ملوخية في يوم يشتهي فيه الباميا كان الويل

والثبور في انتظارها.

هي لم تحتج على كل ما كان يجري فهو في النهاية في أوقات هدوئه حبيب طافح بالرقة، ووسامته تحسدها عليها الصديقات قبل غيرهن.

هي تعزي نفسها بأنه يحبها وبأن من واجبها البقاء بجانبه لتخطي المحنات.

على أي حال فبعد كل جولة تعنيف كان يرضيها بليلة حب مجنونة أو بباقة ورد، وأحيانًا باعتذاربسيط، وبفنجان قهوة، وفطور يتفضل عليها بإعداده بيديه ويتحول المطبخ على إثره إلى منطقة منكوبة.

لم تخبر أمها بشيء عن حياتها الزوجية وهي لم تسألها لانشغالها بمشاريع صاخبة تملأ وقتها عن آخره.

صديقتين مقربتين فقط كانتا على علم بما يجري تريان الجراح التي أصبحت تنتشر على جسدها وتمنعها من مغادرة المنزل لأيام.

نصحتاها بأن تطلب الطلاق لكنها تريثت عل الأمور تصبح أفضل. أخبرتاها أن زوجها مريض نفسي يستغل خضوعها فاهتمتاهماعلنًا بالغيرة منها.

لكن لكل صبر حدود والأمور في الطريق نحو الأسوأ.

جمعت يومًا بقايا شجاعتها وطلبت الطلاق. أدهشته. وقف قبالتها محتجا على جحودها بأن تبادل حبه الكبير بطلب الفراق. سألها أكانت تفضل العودة لمنزل أهلها المفكك بدل البقاء في كنفه وبين أحضانه.

تلعثمت.اعتذرت ولكنه لم يغفرلها. طلب منها أن تغادر البيت،

وأخبرها أن انتقامه سيكون بإبقائها تحت رحمته فلا طلاق ولا عودة.

طرقت باب منزل أهلها منكسرة فاستقبلهاوالدها، وقد شاخ كثيرًا وأخبرها بأنه غير قادر على السماح لها بالدخول قبل أن تعود أمها المسافرة.

عادت منزلها الزوجي تستجدي أن يفتح لها بابه الجامد الأصم.

جرجرت أذيال الخيبة وغادرت بعد ساعة انتظار.

صديقتها فقط هي التي فتحت لها منزلها فقضت عندها أيامًا ولكن الزوج رجلها الغالي لم يأت ليعيدها كما تمنت.

اقتنعت أخيرًا بضرورة طلب الطلاق. رفعت الدعوى بعد أن شعرت بأن الحب الذي كانت تعيشه كان مجرد وهم وبأن طلال، لم يغفر لها لحظة تهور، وهي التي غفرت له نوبات غضبه التي كانت تتفجر على جسدها أيامًاوآلامًا.

تعقدت إجراءات الدعوى وطالت حتى أتى اليوم المشهود، وها هو الحكم يصدر بفك قيدها.

تخرج من قاعة المحكمة تهنئها الصديقات بيد أنها ليست سعيدة.

كانت تعتقد بأن هذا الحكم هو ما كانت تنتظر لتفرح لكن لا. هي حزينة جدًا.

ستعود الآن إلى شقتها التي استأجرتها قريبًا من منزل صديقتها. ستعود لوحدتها لسريرها البارد لخوفها من المستقبل.

هي لم تعد على عصمة رجل لم تراه يوما ككل الرجال.

قبل أن تغادر المحكمة أوقفها وهمس لها بأنها ستندم وستعود بعد

فوات الأوان. لا تدري لماذا أيقظت فيها تلك النبرة الصارمة مشاعر نائمة. خدرتها تلك النظرة الثاقبة الوقحة وشلت كل ذكريات المعاناة الألم فيها.

الآن بعد أن عادت إلى شقتها وفي يدها نسخة عن حكم الطلاق تعلم كم تسرعت.

الآن تشعر بحاجتها إليه. الآن تتمنى عذابها بقربه. هي الآن فقط تتذكر نشوة غريبة لم تجرؤ يوما على أن تعلن ولو لنفسها وجودها عندما كانت تعاني بين يدي طليقها كل ما تعانيه.

قد تكون تلك النشوة غير المبررة هي ما جعلتها تصبر تلك السنوات.

هي فقط في حاجة لاستفزازه، ومشاكسته ليضربها فتطفئ تحت قدميه نيران شهوة تكاد تحرقها.

لا تدري ماذا تفعل لكنها غير قادرة على النوم. تحمل بيدها هاتفها. أصابعها مرتعشة تطلب رقمه وتنتظر.

حدث في مثل هذا اليوم

هل أسوأ من يوم أفتح فيه عيني على رزنامة الجدار تمد لي لسانها ساخرة وقد أشهرت في وجهي تاريخ العاشر من آب؟!

لماذا يصر هذا اليوم في كل عام على المجيء؟

لماذا تصر هذه الأرقام على إزعاجي في كل سنة؟ ولماذا أصر أنا على عادة شراء رزامة أمزق صفحاتها صفحة صفحة لأقف وجها لوجه مع هذا النهار المشؤوم؟

العاشر من آب تاريخ مولدي وشقائي،تاريخ حضوري وغياب أمي وأبي.

ثلاثون عامًا مرت، ولا تزال نظرات جدتي التي فقدت ابنتها تلاحقني.

ثلاثون عامًا ولا تزال تروي لي تلك الحادثة بكثير من التفاصيل وبقليل من المراعاة لمشاعري.

هي تصر على أن تجعلني أعيش عقدة الذنب برغم أني أكثر المتضررين من الحادثة.

دموع جدتي كلما رأتني وأنا طفلة كانت تدمرني محولة أعماق أعماقي

إلى خراب ورماد.

رغم أنها أعلنتها صراحة بأن مجيئي كان ساعة النحس، وبأني لا أستحق الحب إلا أنها أصرت على زيارتي في دار الأيتام التي اتفقت الأسرة على إبقائي فيها، وكأنها لم تكن تأتي إلا لتعذبني، وتنتقم مني على إنه حدث في يوم مولدي أن تعطلت فرامل سيارة أبي، ولم يستطع السيطرة عليها في أثناء عودته بي وبأمي من المستشفى بعد مولدي بساعات فانقلبت وسقطت أسفل منحدر.

انقلاب لم ينجِ منه أحد إلاي ولا أدري كيف حصل ذلك ولكني وجدت بجانب السيارة ولم أصب بأي أذى في حين كان جسدًا أبي وأمي قد اختلطا بهيكل السيارة اختلاطًا تامًا.

هما توفيا ورحلا عن هذه الدنيا وبقيت أنا للشقاء.

في دار أيتام تربيت على يدي أشخاص كل ما يعرفونه عن الأطفال أمثالي أنهم مصدر رزق وبأن وجودهم يضمن لهم البقاء في وظائفهم.

كنت مجرد رقم يجب تأدية مهمة رعايتي، وتامين حاجاتي الجسدية من طعام قد يكون في أيام كثيرة رديئًا ولباس لبسه المتبرعون حتى شارف على درجة الاهتراء قبل أن تجود به نفوسهم.

كوابيس حادث زرعت تفاصيله في مخيلتي جدة لا تكل ولا تمل من تكراره على مسامعي، كانت تلاحقني حتى تسرق النوم من عيني لليالي كاملة، وأنا على سرير متآكل وحيدة.

لا أدري كم من المرات استيقظت من كوابيسي مذعورة صارخة والنار

تحاصرني من كل اتجاه تريد التهام جسدي الصغير. كنت أصرخ وأفر في كل أنحاء غرفتي على غير هدى مني، ولا تعيدني لصوابي سوى صرخات مشرفة القسم الذي أنتمي له في دار الأيتام وهي تنعتني بالمجنونة وتعيدني بغلظة لسريري.

لم أفلح كثيرًا في التحصيل العلمي فكنت في نظر أساتذتي فاشلة.

أنا إذن مجرمة، مجنونة وفاشلة.

كنت كلما كبرت كبر شعوري بالذنب وكبر احتقاريلنفسي. أمعنت في إيذاء جسدي وتفننت في الوسائل. فلا أهدأ ولا أتمكن من النوم قبل أن أشعر بالألم وقبل أن تتساقط على سريري قطرات من دمي أكفر بها عن وجودي كنحس في هذه الدنيا.

بلغت عامي الثامن عشر. جسدي هزيل تحتله بفوضى جراح وندوب لا يوجد من يحفل بها.

كان الجميع قد أوقفوا اعتباري موجودة إلا جدتي التي أصرت على المجيئ دوريا لتعاقبني بكلمات قليلة أو بنظرات لا تضاهيها كل الكلمات فصاحة فتؤثر أمامها الصمت التام.

لم يتذكرني دار الأيتام الذي يؤويني ويطعمني إلا في عامي الثامن عشر، ففي هذا العام علي حسب نظام الدار أن أغادر لبدء حياة جديدة تاركة مكاني لمن هم أصغر مني سنا فالتبرعات قليلة بعد أن أصبح الناس لا يجدون بقية من رواتبهم التي تتقاسمها الكماليات ووسائل الترفيه.

في لحظات وجدت نفسي في الشارع لا أملك شيئًا. في هذا الوقت فقط

اختفت جدتي، ولم تترك لي سوى نظراتها أطالعها في عيون كل الناس، وصدى كلماتها عن الحادث يتردد في كل الأصوات.

أيام قضيتها في الشوارع،شعرت خلالها بسعادة غريبة وكأن الجوع والعطش هما الحل الأفضل لعقابي.

لكن غريزة البقاء انتصرت وأدهشتني قوتها فوجدتني أقف على قدمي، وأبحث عن عمل. والمثير أكثر أني وجدته كعاملة تنظيفات في أحد المطاعم. وقد برعت في هذا العمل كثيرًا فأنا بشهادة الجميع أستاذة في التنظيف رغم أني دائمًا ما أضطر لإعادة مسح الأرض والطاولات مرات ومرات دون أن تختفي بقع الدماء وآثار الدخان الأسود التي تغطيها.

المهم أني تمكنت أخيرا من استئجار غرفة تؤويني. حتى أني كونت بعض العلاقات مع بعض زميلاتي في العمل فأنا ممتازة في تأدية المهمات الشاقة عنهن ولا بد من رد الجميل،أوقفت إيذاء جسدي فتعب النهار لا يترك لي مجالًا للتفكير أو السهر،لكني واظبت على شراء رزمة العام من دار الأيتام الذي كنت نزيلته يومًا، ولا زالت ورقة العاشر من آب تصر كل عام على أن تتقمص جدتي وتروي لي كل معاناتي وتاريخ تفاصيل حياة بنيت على ما حدث في مثل هذا اليوم.

جنس عاطل

ما أن شاهد الصورة حتى وصل الدم في عروقه إلى درجة الغليان، وتحركت فيه الغيرة على الشرف والعرض وتذكر كل أبيات الشعر التي تتحدث عن صيانتها وهو لا يعرف من الشعر إلا تلك الأبيات.

إنها شقيقته بلحمها ودمها صاحبة الصورة في مقهى يجاور كرسيها كرسي شاب وسيم لا يعرفه. هي ليست وحيدة معه بل هناك ثلاثة أشخاص يظهرون أيضًا، ولكنها تجاوره وإحدى الفتاتين في الصورة تجلس بجانب شاب آخر. والمصيبة العظيمة أن الصورة منشورة على أحد مواقع التواصل الاجتماعي على صفحة أدبية، وقد قامت صديقة لشقيقته بمشاركتها تحت عنوان «حلقة حوارية حول الشعر الجاهلي».

أي حلقة حوارية تلك في مقهى وشقيقته هو ضمنها وتجلس بجانب شاب وسيم.

إن الشرف في أسرته الريفية أمر لا مساومة عليه إن دنس فالعار يلحق بالأسرة كاملة، لذلك فالبنات في الأسرة مثار شك ومراقبة دائمة فخطأ بسيط ناتج عن مجرد طيش يؤدي لكوارث لا تحمد عقباها.

والده وجده دائمًا يقولان بأن الأنثى جاهلة طائشة على الرجل تقويمها، وحمايتها من الأخطاء بشتى الطرق، وأن الحرية إن تركت لها جلبت عليها وعلى أسرتها العار.

هو منذ صغره يعتبر مسؤولًا عن شقيقته شرفها من شرفه وتصرفاتها يسول عنها،إن كانت شائنة لحقه الشين وإن كانت قويمة كان هو سبب ذلك.

هو حتى الآن لا يدري كيف وافق أبوه على أن تنتقل شقيقته الوحيدة للعيش في المدينة لتلتحق بالجامعة. أما كان يكفيها الثانوية العامة والتي نالتها وهي في القرية تحت أعين الجميع؟

الفتاة بصراحة كانت متفوقة في دراستها، ولكن يكفيها ما حصلته وهي في النهاية ليست إلا مشروعًا لزوجة صالحة تقوم على رعاية بيت زوجها والسهر على راحته.

لا زال يذكر كم كان معترضا على انتقال أخته للمدينة، وهو الذي يزور المدينة بحكم عمله في بيع محصولات حقول الوالد الكثيرة، وقد عرف مفاسدها وعاشر العشرات من بناتها.

خشي على أخته الزلل والضياع في مجاهل مدينة لا تعرفها والويل حينها من نتائج ذلك الزلل!

حاول أن يهدئ أعصابه ويتحلى بشيء من الصبر حتى يعلم قصة هذا اللقاء الأدبي وهذا الشاب الذي اختار أن يجاور أخته، فلعل الأمر محض مصادفة لا أكثر.

على أي حال هو الآن في المدينة للقيام بصفقة بيع بعض المنتجات الزراعية، وسيقضي يومين إضافيين فالأفضل أن ينتقل إلى سكن الطالبات ويقابل شقيقته ويعرف منها الحقيقة.

لم يستكمل تصفح صور اللقاء الأدبي، ولم يتنبه لأن هناك صورًا كثيرة أخرى غير التي رآها تضم كثر غير شقيقته وانطلق مسرعًا نحو السكن.

قبل وصوله بقليل اتصل به صديقه ليذكره بأن السهرة في منزله الليلة، وبأن العدة قد أعدت لتكون سهرة لا تنسى، وبأن كلفة السهرة ستكون أعلى من المعتاد لأن الفتيات اللاتي ستحيينها، هن من أفضل فتيات المهنة يمتلكن جاذبية وجمالًا يدير رأس أقوى الرجال.

انتفضت كل أعضائه بغرائز وشهوات مجنونة فكبحها بصعوبة، وأخبر صديقه باقتضاب أنه قد لا يتمكن من الحضور لانشغاله بتسوية مسائل عائلية، وأقفل الخط متمنيًا في سره أن ينهي حديثه مع أخته بسرعة، وأن لا يفوت عليه هذه الليلة التي خطط لها وصديقه منذ شهور.

اليوم عطلة نهاية الأسبوع لا بد أن أخته في السكن الجامعي وبأنه سيجدها فورًا.

يقف أمام عاملة الاستقبال يطلب منها أن تتصل بغرفة أخته للحضور فتطلب منه الجلوس والانتظار.

في تلك الأثناء كانت شابة جميلة، تجلس على طاولة واحدة مع أستاذها الجامعي. كانا يجلسان متقابلين. هي بجمالها الريفي الواضح رغم أنها لم تضع أي مساحيق تجميل، وبحمرة حياء لا تفارق خديها. وهو بشبابه

الطاغي وصوته السيمفوني الذي يحيل كل ما عداه ضجيج تتمنى إسكاته.

هو يذكرها كم أنفق من جهد ووقت لترضى عنه، وتلبي دعوته لهذه الجلسة في المقهى القريب من سكن الطالبات، ولا تزال تشعره بأنهما يرتكبان إثمًا لا يغتفر.

أقسم لها بأنه يريد بالفعل أن يتعرف عليها أكثر وبأنها بالنسبة له أهمهن طالبة، وبأن حضورها ملأ عليه أيامه فلا يرى إلّاها أينما نظر، ولا يجد في النساء المحيطات به إلا صورتها التي منعت عنه رؤية ملامح كل الوجوه الأخرى.

أخبرها عن جديته في الارتباط بها، وبرغبته بزيارة عائلتها بعد فترة.

صدقته بكل جوارحها. هي من البداية تميل إليه وتعلم كم هو معجب بها وكيف يلاحقها بنظراته المواربة في المحاضرات، وفي مقصف الجامعة ولكن حياءها وتربيتها الصارمة منعاها من أن تقبل دعواته مرارًا وتكرارًا حتى سقطت دفاعاتها هذه المرة، ووافقت رغم شعورها بتأنيب الضمير.

وافقت على كلامه على استحياء، ولكنها لم تفصح له عن مشاعرها. لم تخبره أنه في قلبها منذ المحاضرة الأولى.

اتفقا على جلسة ثانية بعد أن شربا القهوة، وتناقشا في مضمون لقاء الأمس الأدبي معربًا لها عن أن آراءها كانت مثار إعجاب لدى اللجنة المنظمة للقاء، وبأنهم يفكرون جديًا٠ في دعوتها لإجراء دراسات عن بعض النقاط التي طرحتها.

عادت موظفة الاستقبال إلى الشقيق المنتظر لتخبره بأن من يسأل عنها ليست في السكن، وبأنها خرجت منذ ما يقارب الساعة، ولم تعد حتى الآن طالبة منه أن يترك اسمه لتخبرها عند عودتها.

تراقصت شياطين أمام عينيه فأطلقتا شررًا ملتهبًا. وقف من مقعده وصرخ في موظفة الاستقبال إنها مخطئة، وبأن شقيقته لا شك في غرفتها، فحاولت تهدئته دون أن تعلم سبب هذه النوبة العصبية التي اعترته دون سابق إنذار.

تدخلت إحدى الزميلات، وقد سمعت الحديث لتخبره أن صديقتها ستعود بعد قليل فهي في المقهى مع أحد أساتذتها يشربان القهوة.

«تبا لبنات المدينة». قالها لنفسه. «الوقحة تروي لي بأن أختي مع شاب وكأنها تخبرني بأن الطقس جميل في هذا الصباح».

حدجها بنظرة ازدراء وخرج.

اختبأ يترقب. يتمنى أن لا تأتي شقيقته بالمشين الذي كان يخشاه. يتمنى أن تكون في غرفتها أو مع صديقة من صديقاتها، ولكن ليس مع أستاذها.

لم تطل تمنياته كثيرًا حتى لمح شقيقته تنزل من سيارة شاب تودعه دون أن تشعر بخجل وتنطلق بثقة نحو سكن الطالبات.

يده التي أمسكت بكتفها من الخلف جمد تحركتها،وهي لا تعلم من أين ظهر ولا كيف.

سألها بحدة عن الشخص الذي كانت معه، فكانت صادقة رغم خوفها بأنه أستاذها وبأنه يحبها.

لم يمهلها لتكمل فعلا صياحه مهددًا متوعدًا مقسمًا بغلظ الإيمان إنه لن يسمح لها أن تدنس شرف الأسرة، وأن تضع رأسه في الوحل، وهو شاب على وشك أن يتزوج من ابنة أحد وجهاء القرية قريبًا.

بدأ الناس بالتجمع. علا الصياح أكثر وأصبح الجمع أكبر.

أرادت أن تحمي نفسها من الفضيحة التي يريد أن يلصقها بها باتهامه الظالم، فقالت له بأنها أكثر شرفًا منه، وبأنها تعلم بما يقوم به في زياراته للمدينة، والمبالغ الطائلة التي حتما ينفقها في الكازينوهات وعلى فتيات الهوى. لا تدري كيف انطلق لسانها المتلجلج بهذه الكلمات، وكيف ردت اتهاماته باتهام آخر كان مبنيا على مجرد شكوك عززتها بعض التحليلات.

لكن ردها عليه كان تأكيدا بالنسبة له لإدانتها

استشاط غضبًا. عيناه حمراوانوكل ما فيه في حال استنفار قصوى. يده تمتد إلى خصره يستخرج خنجرًا يحمله معه دائمًا يرفعه في وجهها.

تنظر بذهول إلى الجمع المتحلق حولها تارة وإلى السكين تارة أخرى. لا تستوعب ما يحصل. تريد أن تستغيث أن تطلب عونًا لكنها تتراجع فهي فتاة ريفية تربت على الصلابة.

يده تمسك برأسها، واليد الأخرى تمسك بالسكين. السكين تقترب من رقبتها بثبات.

عيناها تتعلقان بالوجوه منتظرة صاحب نخوة يوقف تلك المهزلة، فلا ترى إلا كاميرات مصوبة ناحيتها تصور المشهد وكأنه لقطة من فيلم سينمائي.

النصل ينغرس في العنق. صور المتفرجين تتأرجح أمام العينين، ضباب يعلو كل شيء يومض خلاله ضوء فلاش كاميرا ويختفي. بعض اختلاجات في الجسد الواهن وينتهي كل شيء.

الجمع متجمدون، وكأن على رؤوسهم الطير يرقبون الخطوط الحمراء تتمدد وتنتشر على بلاط الشارع. المجرم يستعيد سكينه من عنق الضحية يمسحه، ويعلن بأنه ثأر للشرف المطعون ويسير بعيدًا.

الناس لا زالوا في أماكنهم لم يلحق بالجاني أحد. صوت واحد غليظ علا من وسط الجمهور قاطعا الصمت: «كلهن ملعونات جنس عاطل».

عن المؤلفة :

كارين كيوان

- لبنانية فاقدة للبصر منذ الولادة.
- حاصلة على ليسانس في الحقوق.
- مجموعة أهلا بالجيران القصصية هي محاولتها الأولى في مجال الكتابة.
- تضم المجموعة 20 قصة إجتماعية سياسية متنوعة مستقاة من الواقعين اللبناني والعربي بعرض بسيط سلس معتمدا الأسلوب الهزلي الساخر أحيانا والأسلوب الدرامي الجدي في أحيان أخرى.

الفهرس

- أهلًا بالجيران 5
- ضرورة الاختيار 9
- الإيجار الأخير 13
- انتظار ولي عهد، لن يأتي 17
- عقدة ذنب لم تحل 21
- بين غارتين 25
- عذرًا أيها المواطن الاستثنائي 31
- لا أنتمي 35
- أمي موجودة فلا خوف بعد الآن 47
- نذر 53
- انتقام لرجولة لم تمس 63
- جثة عائدة من بين الأنقاض 67
- السرقة الأولى.. والأخيرة 75
- خادم ابن الوزير 83

- ليلة حوار لبناني 89
- إصابة في القلب عن طريق الخطأ 93
- لا للموت بالمجان 105
- مـــازوشـــيـة 109
- حدث في مثل هذا اليوم 115
- جـنـس عـــاطـل 119